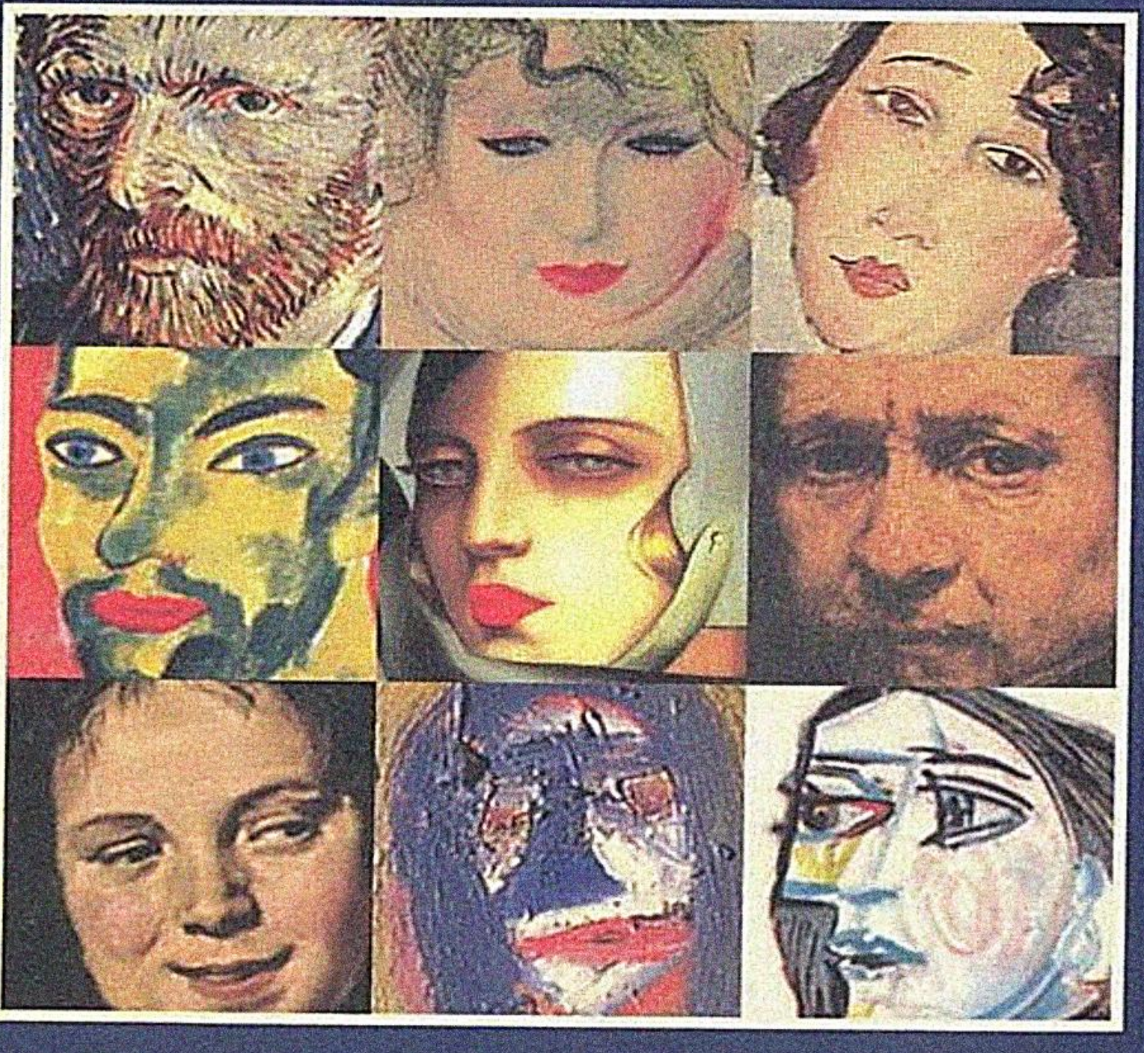
الطبعة الثانية

محمد شكري

وجوه

رواية



دار الساقي

محمد شكري

وجوه

دار الساقي

صدر للمؤلف عن دار الساقي

- الخبز الحافي، سيرة ذاتية روائية، الجزء الأول
- الشطار، سيرة ذاتية روائية، الجزء الثاني

الطبعة الأولى ٢٠٠٠
الطبعة الثانية ٢٠٠٢

ISBN 1 85516 537 6

دار الساقي

بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت،
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)

e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb
DAR AL SAQI
London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 020-7221 9347; Fax: 020-7229 7492

المحتويات

حبّ ولعنات

قال جيوم لأدسو: لم تُؤلَّف الكتب لنؤمن بما فيها، ولكن لنتأمل، فأمام الكتاب يجب أن لا نتساءل عما يقول، وإنما عماذا يريد أن يقول، وهي فكرة كانت واضحة جداً عند مفسري الكتب المقدسة القدامى.

إسم الوردة ـ لأمبرطو إيكو. الترجمة العربية ص: ٤٨٤.

عندما تصبح التجربة أقوى من الندم ينمحي الشعور بالذنب. لن أسعى في هذه التجربة إلى تبرئة نفسي أو إدانتها: أنا والآخرون. فبين الفرح المطلق والحزن المطلق أنا بينهما مثل دودة القزّ. آهٍ من الأجمل الذي أتمناه لك أو لي! قد يكون ما أتمناه لنفسي أقلّ جمالاً مّما أتمناه لكل لعين مثلي. لن أخشى من الغد الكئيب اللعين سواء كنت مع نفسي أو مع الشيطان.

حتى ليل طنجة الذي كان في الأمس القريب يحتفظ ببعض شبابه وشيء من روح جماله أصبح اليوم هَرِماً، مُتَرَهِّلاً، قبيحاً وملطخاً بالبراز. صار وحشياً ولم يعد يوحي بأيّ راحة

واطمئنان. أنا أعرف أنه يتملص من التهم الموجهة إليه وكل ما هو مشبوه فيه. أعرف أنه أبو الجرائم وحليفها، ومع ذلك فلن أكون ضده مطلقاً: لن أتنكر لعشرته القديمة؛ لأنني مدين له بالكثير، في الزمن الذي كان فيه عَضُدي وحليفي، في زمن العيش القاسي المريب. لن أنكر جميله، لكني لن أتواطأ معه اليوم في بشاعة جرائمه التي يغتال فيها الأبرياء ولم يتب عنها.

لم تكن تمتلئ حانة غرناطة بالرواد إلاّ عندما بدأت تعمل فيها فاطي ساقية. لم يسبق لرواد هذه الحانة وغيرها من الحانات الممسوخة في طنجة أن خدمتهم، في لياقة وغنج، نديمة جميلة شقراء تستشهد، في حديثها مع بعض الأميين، بالأشعار العربية الكلاسيكية والحديثة، بصوتها الناعم النغوم. صاح شرّيب معربد «مربوط» فيها: إنّ عصر الجواري قد عاد. عاشت أمك يا فاطي!

إن غيرها من النديمات، والساقيات، والبغايا يلفقن حديثهن بماضيهنّ المليء بالحرمان، والهجران أو النميمة المُستحبة أو المُستكرَهة على حياة الزبائن ببلادة وابتذال. أما فاطي فتستمد ثروة حديثها وإغراءه من الكتب التي تقرأها بنهم وإنْ كانت لا تفهم الكثير منها، لكن طموحها كبير فيها وبها تقوّي شخصيتها كل يوم. ما يعرفه الفضوليون عنها، في طنجة، هو أنها جاءت من العرائش. إنهم لا يقلّون «عنهنّ» نميمة وبلاهة وتفاهة. غادرت فاطي دراستها في السنة الرابعة الثانوية وجاءت إلى هذا الفردوس، الذي لم يبق منه إلاّ الوهم، (ماضيه)، لتعمل في حانة غرناطة. إنه قدرها وهي لم تبلغ بعدُ العشرين: «لم أتعلم قط كيف أحبّ، ولا أظنّ أنني سأعرف كيف أحبّ». هكذا تقول، عن صدق أو كبرياء. لا يهم. ما يمكن أن نفهمه مما

تقوله فاطي هو أنها لا تفهم الحب إلاّ فيما تقرأه في الكتب. إنّ الحبّ كان خارج حياتها: التفكير في الحبّ وليس العيش في الحبّ. إنها، حتى الآن، تلهو به، لتحافظ على عملها، في حانة غرناطة، ولا يلهو بها. تحاورت معها في معنى بائعة الهوى فقالت: «بيعُ الهوى هو أن أمانع في بيع هواي على هواي، هذا ما يمكن أن يكون له معنى في حياتي. قد يحدث أن أبيع جسدي لمن لا أهواه، لكنني أيضاً قد أهب جسدي نزوة وشهوة». ثمّ أضافت: هل تريد أن تعرف؟

- قولي.

- إنني لا أقدر بعد على التفكير في هوى سنّي. (بعد وهلة أضافت): ما أريد أن أقوله لك هو أنّ الحب لا يباع لأولاد الحرام.

ما فهمته أيضاً من فاطي هو أن أحلام الذين يعيشون في الغنى قد لا تختلف كثيراً عن أحلام الذين يعيشون في الفقر، تماماً مثل أحزانهم وأفراحهم هي سواء بينهم.

إن فاطي هي قابضة صندوق الحانة ونديمتها الأولى، واللعوب الماكرة عند اللزوم. إنها تعرف ما تقول. لقد عرفت منها أنه قد انتحب عند قدميها، في لحظة ضعف وتفاهة، الكثيرون من القوادين، والمعتوهين، وشهداء الخواء البشري، الفقراء منهم والأثرياء، هي العاهرة في غيابها وحضورها. لكن فاطي تتعزّى عندما ترى أبناء الزانيات هؤلاء يشهقون أمامها في صمت وهم يحكون لها عن مباذلهم البائسة وهي تتظاهر بإنصاتها إلى ثرثراتهم الحمقاء، الجوفاء، باهتمام بالغ فيعتقدون أنهم حقّاً مهمّون. إنها ميزة ذكائها ولعبتها الاستهوائية التي لا تنافسها فيها

إحداهنّ في الحانة فتشدّ بها إعجاب الرواد بجنون وفتون. لكنها هي أيضاً لها انحطاطها الذليل أمامهم حينما يكونون في الحانة هم الشاربون وهي الساقية، وأحياناً ينشف فمها فتبلع ريقها بصعوبة أمام غوريلا خانه حظّ يومه فجاء إلى الحانة والجريمة ترقص في عينيه بجنون. إنه يشتهي أن يتسلى معها هي بالذات على هواه وإلاّ هشّم لها وجهها بلكمة أو يُشرّطه لها بسكين ومن يتدخل لحمايتها قد يكون نصيبه أفظع. ربما الموت نفسه. ما سيكون مصيرها وفي وجهها نَدَب؟ إنك قد تتساءل: أهي حقّاً قد رأت ما رأت أم أنها حلمت ما رأت أم أنها تحكي فقط ما سمعت...؟ وأنا كذلك أتساءل: أهي المغامرة الحقيقية لا تتمّ إلاّ مع لصّ أو مومس، صعلوك أو مجنونة؟ لكأنّ بطولة الحب لا تتحقق إلاّ فيما هو مدنس وملعون، أن يعشق غنيّ مفلسة، ومؤمن كافرة. قد يكون؛ لأنّ المحبين الحقيقيين علموني أن الحب لا شريعة له، لكنه ينبغي أن تُستعاد كل ذكرى فرح أو نحس عَبْرَ المخيّلة المبدِعة اللعينة. أسفاً للذين يكتبون ولا يملكون ذاكرة مُبدِعة لعينة. إنّ كل كتابة مُغْوِية تحمل سرّ الإعجاب بها أو إهمالها. وإذا كان المغيظون لا يتركوننا ننمو طبيعياً؛ لأنهم أوغاد يسرقون لنا طفولتنا، شبابنا وكلّ حياتنا، فعزاؤنا هو في أن نقهر بإبداعنا الزمن المتردئ الذي يخلقونه لنا في كل طور وعصر.

أتذكر شاباً كان قد بدأ يكتب بحماسة مؤمناً أنّ كل خلاصه سيكون في الكتابة. حسناً. إنّ الكتابة تبارك من يخلص لها ولا تتخلّ إلاّ عن الانتهازيين، حسبما قيل لنا. في تلك الفترة لم يكن ينبعث، في هذه المنطقة، غير زهو اللوز المرّ. لكن الشاب لم يصمد أمام اختبار الكتابة، الذي لا يرحم أحداً، ولا تنفع معه أية وساطة ولا حتّى

الأموال الوافرة لارتشائه. لقد ابتلع الشاب حنظل الزواج فتسمم وتقرَّح، وخاب أمله في النضال فيئس واختنق. أتذكر أنّ الله لم يكن معه. أسفاً له! لقد قهرته امرأة كان يحبها بجنون، خانته كثيراً مع الذين توهمهم أصدقاءه، ولم تخلص له إلاّ بعد مماته: فقد صارت تذكره في كل مكان حتى جُنّت وبدأت تعيش بين مستشفى المجانين والشارع، لأنها كرهت العيش تحت السقف العائلي. ومن حسن حظي أني لم أحبّ أية امرأة لعينة حتى تقهرني: لا قاهر ولا مقهور. لقد أحببتهنّ من بعيد. لا يهمني أن يبادلنني حبي لهنّ. عندما تبدأ امرأة تبادلني الحبّ عن قرب وجدّية العشرة معها فإنها الكارثة هي التي تبدأ. أن أحبهن بعيداً عني، بعيداً عني، وأن يحببنني بعيداً عنهنّ، بعيداً عنهنّ: أن يكون بيننا الحنين الذي قد يخلق لنا ذلك الحب إن هو وُجِد. لا أحبّ امرأة أقدسها في المساء لكي ألعنها في الصباح كما يفعل أكثر الملاعين. إنّ كل شرح لهذه الأسطورة يظلّ أقلّ من قيمتها، وهي أيضاً حليفتنا في تناقضنا وأكثر صموداً منا في إيهامنا بوجودها. أمّا أنا فما برحت أكابد من أجل أن أحبّ نفسي وأقهر هواجسي الحمقاء الخبيثة. نحو النرڤانا[١] Nirvana وليس الكرْما[٢]

(١) النرڤانا: التخلص من الرغبة من أجل التعالي (اتجاه صاعد).

(٢) الكَرْما: إرضاء الغرائز (اتجاه نازل). وعلى الإنسان أن يختار بين النرڤانا والكرما: الإنسان أو الحيوان. على أنه إذا كان الإنسان شظية من شظايا المطلق فإنّ النرڤانا تعلمه أن يلمّ شتاته ليتحد من جديد مع الوجود المطلق. ويرى شوپنهور أنّ ملذات الحياة أقلّ من عذاباتها؛ فمن الأفضل البحث عن طريقة للتخلص من العذاب بدل البحث عن السعادة، لكن البوذية تدعو إلى عدم التعلق بأيّ شيء والتفكير في الفراغ عن طريق اليوغا: التخلص من الأفكار بدل تعلمها، لأنّ البوذية لا تعلم أيّ شيء؛ فالحرية الباطنية هي الإرادة والحرية الخارجية هي الفعل.

Karma : الصاعد لا النازل.

أتكون «أجمل الأشياء هي تلك التي يوحي بها الجنون ويكتبها العقل» كما يقول أندريه جيد؟ أما نيتشه فيعترض في استرخاء أرستقراطي: «الذكاء الأسمى والقلب الأدفأ لا يمكن أن يجتمعا في شخص واحد».

في هذه الرحلة الطنجية التي أكثرها ليل وأقلّها نهار سأفني بعضاً من نفسي في التخيلات والاستيهامات، الهلوسات والهذيان الاستمنائي، فيما يوحي به السقف العزيز على «زفزاف»، في الاسترجاع والتخاطر العزيزين عليّ وعليه. فمن يغبطني على هواجسي الهوجاء في هذه المتاهة...؟

القذارة البشرية ليست مقتصرة على المرحاض، لكن هذا يستدعي أن الإنسان (منذ أزله) إنْ هو لم يكن مريضاً بشيء ما، جسدياً أو ذهنياً، أو هما معاً، فهو ليس طبيعياً. لا بدّ له من أن يحزق أو يتجشأ، يتثاءب أو ينام، يحيا أو يموت وإلاّ فهو ليس منا.

الليل ليس دائماً مقدساً: إنه التأمل الذي أَرَّقَ نيتشه وجعله يحزّ أصابعه بموسى أو يحرقها على لهيب شمعة ليتحدّى قلقه وألمه، إنه الهذيان الذي أنهك لوتريامون بعد أن يكون قد شرب عشرين فنجاناً من القهوة الكثيفة ولا أحد كان يستطيع إيقافه راكضاً في شوارع باريس، إنه الجنون الإنساني الذي عجّل موت فان غوغ واستوحد أنطونان أرطو واستريندبرغ ونيجينسكي...! الليل هو الطهر أو الدنس، الحلم أو الكابوس، المُسالمة أو الجريمة. الليل لا يشفق على أحد. عليك

أن تشفق على نفسك فيه، أن تختار وتعرف ما تريد أن تكون فيه. أما أنا فقد عزمت على افتراس وليمة ليلي قبل أن تخونني شهيتي، قبل أن تتحمّض معدتي وأتقيأ الصفراء وأفطس.

- فاطم!

فاطم أو فطيم، هكذا كنت أناديها حتى أتميّز عن الملاعين فتمرح وتهلّل:

- ها أنا!

- كأسي الفاطمية[٣].

- نعم.

- جيوبي مثقوبة، هذه الليلة.

- لا تقلق، سأرتقها لك كالعادة، في انتظار ما سيأتي به غدك.

- شكراً، پينلوب Pénélope[٤].

- ماذا تخرّف؟

- سأرحل مع الملاعين.

- هل ستكتب عن رحلة الأطفال الذين يشمّون «السيلوسيون» Sillecione؟[٥] إنهم يغزون المدينة في الليل كالجراد في هذه الأيام؟

- ربما. ولكني أيضاً سأكتب حبّاً في الكلمات، حبّاً في

---

(٣) التي لا أدفع ثمنها.

(٤) المقصود هنا هو الغَوْث والكرم وليس مهارة زوجة عولس في صبر الحياكة منتظرة عودة زوجها من رحلته.

(٥) نوع من الغراء (من مكوّناته Ether)، يشمّه الأطفال، والمراهقون والشبان للتخدير.

رحلة لعنة الكلمات والجسد. إنّ الجسد هو وليمة طنجة العظيمة. الاحتفاء به هو الأول والأخير. يأتينا على طبق شمسي أو قمري: كما نهواه. أذكر الدروب القديمة: في هذا الدرب أو ذاك كم سمعناهم ينشدون صُبحيات داود(٦)! صدى العرس اليهودي كان يتواصل بين السطوح حتى الصباح.

ـ أمّي ترغب في أن تعرفك. حدثتها كثيراً عن جنونك.

للاّ شفيقة تَبنت فاطي صدفة. أمها نزهة حبلت بها هي أيضاً صدفة، عندما كانت محترفة في آخر أيام ماخور العرائش قبل أن يغلقوه بعد الاستقلال. كانت للاّ شفيقة قد أصبحت قوادة مبجّلة بعد أن انقضى مجد قحبها. ظلت محبوبة ولطيفة وعلى شيء من الوسامة المغرية حتى اليوم إذا راق مزاجها مع أحد المعجبين بها.

جاءت عندها نزهة وتركت لها ابنتها فاطمة الزهراء في حجرها وهي بين الرابعة والخامسة من عمرها. «سأزور أختي في سبتة وأعود». هكذا قالت تاركة لها مبلغاً زهيداً من المال، لكن نزهة انشبكت في علاقة مع جندي إسباني من الترثيو Tercio(٧) طعنها بسكين حينما اكتشف أنها تخونه مع شاب مغربي. لم تتبنَّ للاّ شفيقة فقط صدفة فاطي إنما سقطت كذلك في حضنها ياسمينة وليلى. هكذا بدأت حاضنة تتقاضى أجراً عن الأطفال المحضونين فإذا بها تتبنّى أطفالاً مهجورين. كان عليها أن تكدح

---

(٦) إشارة إلى مزامير داود.

(٧) اسم لبعض الوحدات من الجيش الإسباني المعروفة بالعنف. أغلب جنودها يَشمون أذرعهم وصدورهم بالثعابين ووجوه النساء وغيرها.

لكي تعيلهم دون أن تعود أمهاتهم المهاجرات إلى مدن أخرى في المغرب وخارجه أو يعدن بلا فائدة من استعادة أولادهن. الطفل الذي عادت أمه وحملته معها باكياً على فراقه للاّ شفيقة لم تدفع لها أمّه شيئاً لأنها كانت أكثر إفلاساً منها.

ربما كان خيراً لِللاّ شفيقة أن تتبنّى البنات أفضل من الأولاد كما نصحتها امرأة جرّبت التبنّي قبلها وعرفت الاعتراف بالجميل ونكرانه بين الأطفال الذين تبنتهم، لكن الأمر قد يكون سواء.

لقد كابدت للاّ شفيقة بما تبقّى لها من شباب جسدها بين لعاب الرجال وفحشهم وشراستهم حتى أكبرت فاطي التي خرجت إلى «الميدان» دون إرادتها، لكنها اليوم لا تتوجّع وما هي بنادمة على الكثير. بقيت ياسمينة وليلى في المدرسة تحت ظروف دراستهما القاسية. لقد صارتا تعتبران فاطي أختهما الكبرى أو خالتهما ـ إذا اعتبرناها الأخت الصغرى للاّ شفيقة.

كانت للاّ شفيقة قد بدأت تتعب شغيلة في المطاعم الصغيرة والفنادق الحقيرة ثم منظفة ساعة هنا وساعة أو ساعتين هناك في بيوت العزّاب والأرامل المتقاعدين الذين أعجزهم المرض أو هم ينازعون أيام الموت الأخيرة. أحياناً يكون من رزقها أن تستسلم لزبون يضاجعها بعد عملها في بيته فيضاعف لها أجرها فإذا بها تحمد الله كثيراً وتكون من الشاكرات للمحسنين. لكن إذا كان الزبون بخيلاً ابن كلبة خسئة فإنها تلعن اليوم الذي ولدته فيه أمه وتدعو عليه أن يكون من الخاسرين. وهناك من يُكْرِهُها دون رحمة على أن يمارس معها رغبته اللوطية الدفينة وما هي بِكَسبٍ للآثمين.

كان جسد فاطي قد نضج كفاية لتواجه به شره المتهافتين عليها. جمالها كان ثروة تحسدها عليها كل بائسة في مهنتها ولا تعتبرها فاطي عاراً إنما هو المكتوب عليها وعلى أسرتها. إنها تؤمن بأنّ الطالح كثيراً ما يغذي الصالح. كانت قد عاهدت نفسها على أن يحلّ جسدها محلّ جسد للاّ شفيقة لترعى أسرتها المنكوبة دون تذمر أو حسرة أو ندم على ما حدث لها. هنا أدركتُ لماذا هي عزوفة عن الحبّ الذي قد يقودها إلى حماقة زواجها من أحد الملاعين!

الكسكس: هو الأكلة التي لا أحبها. لقد أكلته بالكرشة يوم مات خالي وعمري سبع سنوات فعفته ونادراً ما أستسيغه. كان ذلك أيام المجاعة في الريف. اليوم أعدَّته للاّ شفيقة باللحم والخضر على طريقة ما ورثته من الطبخ المراكشي: كسكس الذرة الصفراء. أكلته عندها لأنّ طعمه لذيذ يختلف مذاقه عن الكسكس العادي الذي أكلته بضع مرات في حياتي حتى لا أحرج مُضيفيَّ الطيبين في المناسبات العائلية المملّة واللعينة. أكيد أنّ للاّ شفيقة طبخته بسحرها السري وبركتها ثم زكته فأحضرته على (الطيفور) وعيَّنت مكان جلوسنا بالترتيب. إنها ما زالت تحتفظ برشاقتها الغاوية التي تشدّ بها عزّ كهولتها من خلال خفة انعكاس حركاتها اللينة رغم خمسينياتها، ولا تفرّط في زينتها التقليدية ورقتها التي اكتسبتها من تجربتها الخصبة. إنها تعرف كيف تجدد ما يشيخ فيها. لو أنك عرفتها فربما أحببتها هي وفاطمها مثلما لا أستغني أنا عن شغفي بهما.

إنه يوم عطلة مدرسية. بعد الغداء، أشارت للاّ شفيقة خفية بنظرتها الشفافة إلى ياسمينة وليلى فانسحبتا إلى الحجرة

الأخرى على استحياء. إنهما في سنّ متقاربة. تبدوان منسجمتين كأنهما كانتا ترضعان من نفس الصدر مثل توأمين. لا تبدو عليهما أية ملامح من كآبة اليتم. كلتاهما في حوالي الخامسة عشرة، صدرهما ناهد ولا شك أنهما قد بدأتا تلامسان تَبَرْعُمَه وتُهَدْهِدانه.

للاّ شفيقة تدلل فاطي بما يرضيها. وأظنّ أن كل فتاة شقية تتمنى أن تكون للاّ شفيقة أمّها. لقد باركت فاطي ورضيت عنها مرات وقت غدائنا. أنا أيضاً باركتني ورضيت عني لأني رفيق فاطي وأمدها بما عندي من كتبي ورفقتي الطيبة معها دون طمع في هوى ماجن منها سوى لهونا بغزل الكلام، لكن في عمقي أكبِتُ لها حبّاً غامضاً.

كانت فاطي تضع شريطة بنفسجية من الحرير مزركشة على جبينها، وتنورة رمادية طويلة وقميصاً أبيض. صحبتها إلى الشاطئ في نهاية الخريف لتشم البحر كما قالت وتحمم شعرها في هوائه، وتنظر إلى الأفق هي المحشورة دائماً بين أربعة جدران في دار كالحة تقرأ فيها أو هي في الحانة تخترع حكايات أو تستمع إليها من المساكين المتبجحين.

ـ هل سافرتَ مرة خارج المغرب؟

ـ زرت عمتي في مليلية عام ٥١ عندما كنت عائداً من وهران إلى تطوان ولم أذهب أبعد من سبتة حتّى الآن.

ـ لو لم أكن مسؤولة عن أسرتنا لسافرت إلى الضفة الأخرى لأرى كيف هو العيش هناك وربما أغراني البقاء دون عودة.

ـ في بداية الستينيات، كنت أفكر أنا أيضاً في الاغتراب، لكني فضلت أن أبقى هنا لأرى ما سيحدث.

ـ ولم تندم. . .!

ـ لا أعرف كيف أندم مثلما لا تعرفين أنت كيف تحبين.

كنا نمشي قريباً من حافة البحر والأمواج المحطمة تطشّ ويلحس زبدها أقدامنا وحذاءانا في يدينا. لا أحد يرانا عن قرب. النوارس تزقزق وتقفز أو تطير أو تنزل على الرمل أو تحضن فوق الماء. في يدها «الحانة» L'Assommoir[٨] مترجمة إلى العربية وفي يدي قارورة Petaca أشرب منها جرعات من الكونياك الإسباني وهي تدخن لفائفها جالسين قريباً من حافة الماء أو ماشيين. لا يشغلنا شيء من هذا حرام وهذا حلال. غيوم داكنة وبرد خفيف يصفع الوجه. كانت قد أنهت قراءة الرواية وحملتها معها لتعيدها لي. إنها تتمنى ألاّ تنتهي حياتها مثل جرفيز Gervaise[٩]. أفهمتها أن علينا ألاّ نتقمص حياة أبطال الأعمال التي نقرأها كما قال لي جان جنيه الذي حدثته عن تأثري بحياة جوليان سوريل[١٠]. إن مصير الأبطال ليس حتماً هو مصيرنا.

ـ وإذاً فحياتهم لا تشبه حياة الناس!

ـ مهما تشابهت حياتهم مع حياة الناس فإنّ من يتشبه بحياتهم قد يسقط في الهاوية الجهنمية التي لا صعود منها. إن

---

(٨) رواية لإميل زولا.

(٩) GERVAISE بطلة رواية الحانة.

(١٠) بطل الأحمر والأسود لستندال.

دماءهم مسحورة. هناك من انتحر بعدما قرأ فرتر Werther لجوته، وغادة الكاميليا لدوما والغريب لكامو.

لم أكن أخجل وأنا أسير مع فاطي في الشارع؛ فهي ليست من اللواتي يبرزن صدورهن ومُؤَخَّراتهن يُرْقِصْنَها يميناً وشمالاً، صعوداً وهبوطاً وسراويلهن لصيقة بوسطهن لتقول لك إحداهن في صمت: «هاأنذا، اتبعني، إذا كان هذا هو ما يجننك في الفراش». أما فاطي فحساسيتها الرهيفة تحميها من التكالب على أحد.

كنا نشرب وندخن على هوانا ومسراتنا. كانت للاّ شفيقة في منتهى انشراحها وإشراقها. فاطي تدخن باسترخاء وتشرب بلذة ونخوة فتنتها. إنها لا تحبس الدخان في صدرها ثم تزفره كما تفعل كل فتاة مهمومة لعينة. حتى عقب سيجارتها ليس قصيراً عندما تطفئه على مهل كأنها تخطط اسمها على الرمل. أما للاّ شفيقة فتدخن بعمق سجائرها الرخيصة لكنها أيضاً لا تحبس الدخان إلا قليلاً. فكرت أن كل فتاة منكودة تتمنى لو أنها تكون لها أسرة مثل فاطي.

صارت للاّ شفيقة تعتبر فاطي ربة الأسرة وخيرها هو المنقذ. أعتقد أنه لو كانت أمها ما زالت حية وعادت لتصحبها لامتنعت.

للاّ شفيقة لها قنينتها من النبيذ. هي لا تلحّ على أكثر، لكنها لا تزهد في الوافر منه إذا حضر. أما إذا جاد عليها أحد الكرماء بقنينة أو أكثر من النوع الذي تشتهيه فإنها تدعو له بالخير العميم والبركة الدائمة مستنهضة الأولياء من أضرحتهم. لا بدّ

لها من جِرايتها مثلما ينال الجندي تموينه اليومي مهما كانت الأيام عسيرة. غير أن ما يُحزن للاّ شفيقة ويسبب لها حَزَّة في قلبها هو أنها قلّما تجد من تحيي معه لذة شرابها وعشقها للسمر في ظل القمر كما تقول في حسرتها. وإذا ما هيّجها الشوق فإنّ فاطي تشفق عليها وتشفي غليلها بما يلائمها من ذكرى حنينها إلى غابرها. إنها تعرف كيف تختار لها من الحانة نفسها زبوناً أكثر أو أقلّ من سنّها، سخياً وظريفاً في شرابه، زاهياً في لهوه وغزله فترضى عنهما معاً وتبارك ليلتها معه.

فاطي لا تبالغ في الشراب نهاراً لأنّ ليلها ينتظرها في حانتها. إنها المسؤولة عنها ومنها يأتي رزق أسرتها وربّ الحانة راض دائماً عن استقامتها ومهارتها في خدمتها. وإذا ما ألحّ عليها زبون مبذر، عنيد وملعون في استمالتها إلى الشراب، طامعاً في إسكارها نزوة منه أو عن سوء نيته الخبيثة فإنها تعرف كيف تتخلص بدهاء من محتوى كؤوسها في المغسلة تحت المَشرب. إنها تفرح عندما ترى أحد هؤلاء المتغطرسين الملاعين يخرج بطائن جيوبه ولا يجد ثمن أخذ سيارة أجرة. «نجاني الله من أنني لست زوجة واحد منهم». هكذا تستلطف...! لقد رأت كيف تنحطّ من غَلَبَها الشراب بين أحضان الماكرين. إنهم يريدون ذلك لكلّ النساء ويتلذذون به بجنون. عليك أن ترى واحدة منهنّ وهي سكرانة. إنها تصير رخوة مثل خرقة أو اسفنجة؛ فهي تتبشّع حتى لو كانت في منتهى الجمال. كنت قد رأيت إحداهنّ في صباح جدّ ماطر تمشي على أربع فوق الرصيف في البولڤار. عندما كانت تعجز عن الزحف تجلس على عتبة متجر والمطر ينهمر بغزارة وهي تبكي وتستغيث حتى أنقذها من

سخرية المتفرجين سائق تاكسي كهل لاعناً الخبثاء الضاحكين الذين لا يرحمون. بعضهم تابع طريقه مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم، وبعضهم ظل هناك يَتَشَفّى من سلوك النساء المنحطّ. وكان رجل يمرّ والمطر ينهطل عليه وفي يده مظلته مطوية. يحركها كعكاز يوازي قفزها في يده كل خطوة من خطواته العريضة. فكرت أنه رجل ومظلته ومضيت قبل أن يُعْديني أحد بفضوله سائلاً إيّاي عما حدث للمرأة التي لم تعد هناك، ولكن ثلاثة أو أربعة ظلوا هناك يروون ما حدث. بعضهم مُشفِق وبعضهم لاعن. لقد حكيت لفاطي ما رأيت فقالت بأنها قد رأت من سال خراؤها وبولها حتى أخمص قدميها وهي ما زالت واقفة إلى المشرب تعبّ شرابها غير واعية بما يحدث لها من تحت. هذا ما تخشاه فاطي هي أيضاً وتحتاط منه بحيلتها، هي الجميلة الجذابة التي يشقى من أجلها الرجال الجشعون البلهاء والعقلاء ولا تشقى هي من أجل أحد في شيء. لا ريب في أنّ للاّ شفيقة تضخّ فيها من دم تجربتها هي التي عانت من بطش الرجال وفسقهم وحمقهم.

تبدأ فاطي عملها في الثامنة مساء. غالباً ما يدوم عملها حتّى الرابعة أو الخامسة صباحاً. إذا هي لم تنم في الدار فإنّ للاّ شفيقة تفهم أنها نامت مع زبون شهم وكريم. إنها لا تخشى عليها. لقد دربتها على المراوغة اللطيفة وكيف تستلين حتّى تسلّ الشعرة من العجين كما يقال دون أن تقع في خِزيٍ أليم. لكأنها مسلحة بحجاب خارق يحمي ما ينفعها. فاطي لا يهمها عمر الزبون قدر ما يهمها ما يدفعه وهو راض عن نفسه، لكن عليك أن تعرف أنها لا تنام مع قذر في لباسه وجسده مهما يجزل لها

في العطاء. مرة انتشيت في الشراب فطلبت منها أن تنام معي وكنت من الخاسرين. كان عندي كفاية من النقود ولم أكن قذراً، لكنها اعتزت وتمنعت ببشاشة: أريد أن أحتفظ بك صديقاً. هكذا طعنتني اللعينة بلطفها إلى حدّ النفور منها. كيف ترفضني وهي تذهب مع من هو أقلّ مني! فيما بعد، فكرت أني المخطئ الساذج اللعين. وأقنعت نفسي بأنها أيضاً تريدني ولكنها لا تعرف كيف تريدني فظلت حائرة بين ما تريده ولا تريده مني في اضطراب مكتوم شبه متماسك. وطبعاً حدث هذا قبل أن أعرف للاّ شفيقة التي زكّت بيننا هذه الصداقة المقترحة فَعَمَّقتْ كبح مشاعر شهوتي الجياشة نحو فاطي. وحتّى لا تغالي فاطي في هزيمتي وتتركني أستمني ليلتي اختارت لي بابتهاج «مبتدئة» فيها شيء من ملامح وجه رامبو ووسامته عندما جاء إلى باريس لأول مرة. لكأنّ فاطي تلبّي لي رغبتي فيها من خلالها موصية إيّاها بأن تعاملني كما لو كنت أخاها.

كانت هذه «المبتدئة» قد بدأت تتردد على الحانة منذ أيام. إنّ فاطي تشفق على «المبتدئات» مثلما تكره المحترفات الخادعات والمنتقمات من الرجال الطيبين إلاّ أن يكون هناك سبب لعين. ستبغضك إذا هي عرفت أنك تخدع «المبتدئات» الغريرات وتستغلهنّ بشماتة. فكرت ونحن نبتسم ووجهانا في عيوننا: اللعينة! أتريد أن تخلق معي مغامرة ما تقرأه عن الحبّ العذري في الشعر الذي نسيتُ أكثره...؟ تلك لعبتها، لكن عليها أن تسلي بها نفسها مع زنبور آخر. أنا أيضاً لي لعبتي أغوي وأراوغ بها من أريد. هكذا كنت أدافع عن نفسي لأقهر رغبتي فيها. ورغم كل ما قدمته لي فاطي من جميل في تلك الليلة فقد شعرت

بالخيبة وإنْ لم تكن خيبة ساحقة فيها عُنّة...![11]

لقد بدت لي «المبتدئة»، في البداية، على شيء من الخبرة في الملاعبة: فما أن دخلنا الفراش حتى راحت تتلوّى كأفعى تستيقظ، لكن انكشف لي أنها مثل معزة حمقاء تنطح في طيش كل مكان حميم حتى قبل أن ألمسها في مكان حسّاس؛ فهي تخرج لسانها خارج فمها وتدوره ثم تسرطه مثل حرباء اصطادت جُنْدُباً. ولكي تبرهن لي على شبقها الزائف حاولت أن تعضّ شفتي السفلى وإنْ بحذر، وأن تخمش هنا وهناك، وأن تستقرّ أظافرها على ظهري مثل سرطان البحر وهي تتلين وتتأوّه. لقد أفهمتها بلطف أن هذه الإثارة المهتاجة لم أتعود عليها ولا أستلطفها في شيء فكفت عن المداعبة والمراودة واستكانت عاقلة. لكني فكرت أنه ما عساني أن أفعله مع امرأة عاقلة في الفراش؟ لا شك أنها شعرت ببعض الإهانة وهي تحاول أن تعرض فنّها في المضاجعة. أعرف الكثيرين الذين يبتهجون بمثل هذا العضّ والخمش ويتباهون بهما بسخافة. إنهم لا يتوانون عن كشف آثارهما لتأكيد إعجابهنّ بهم. ربما ندمتُ قليلاً على ردّ فعلي إزاء سلوكها، لكن بديهتي لم تسعفني في الوقت المناسب كما أردت لكي أطلب منها تلطيف عرضها الساذج في العضّ والخمش والقرص. لم تكن الليلة سلبية تماماً، لكن ينقصها الانسجام. ألأنّها كانت أوّل مرة معها؟ ربما!

جميل أن يسقط المطر، لكنه يصبح كارثة عندما تسمع القطرات تتساقط من السقف في خمسة أسطال بانتظام: بلاق...

---

(١١) العُنّة هي العجز عن ممارسة الجنس.

بلاق... بلاق... إني أحتمل أن أتبلل من قمة رأسي إلى أخمص قدميّ دون شكوى ولا هذه القطرات التي أسمعها تبقبق أو كما لو أنه الطائر النّجار ينقر هامتي صانعاً عشّه، كما لو أنّ دبوساً ينغرز في جنبي، في جفني. كل صفعاته أطيقها على وجهي في الشارع أو في الغابة إلاّ قطرة واحدة تخرق الآن سمعي برتابة تجنّن. لكأنه تعذيب صيني حقيقي، لكنني لن أستسلم حتى ولو جننت، حتى ولو انفجرت جمجمتي. ها هي مزايا السكن على السطح تسقط في الهُوّة.

شربت كأسين من النبيذ الواحدة تلو الأُخرى لعلي أتخدر قليلاً وأنام، لكني عينيّ البومة يقظتان في عينيّ. حتّى جرعة من الكحول القويّ لم تكن عندي في هذه الليلة. أما «المبتدئة» فلا أعرف كيف دبّرت أمرها! لقد نامت دون أن تنزعج. أعرف أشخاصاً يتوسل إليهم النوم ولا يتوسلون إليه. وعندما طفق يدفئني النعاس أخذ شخيرها يعلو وينخفض مثل صفير مخنوق، مثل قطار قديم يعلن عواؤه الوحشي عن إقلاعه. وحتّى لا أهينها مرة أخرى لم أجرؤ على زحزحتها. لا أذكر كيف نمت. ربما أوحيت إلى نفسي بأني قد مت!

لم أذهب إلى العمل، ولم أجد ما أدفعه للآنسة «المبتدئة». إنها «حَصْلَة»[١٢]. ماذا ستظن؟ لقد أَفْلَسْتُ إذاً في الشراب معها! أذكر أنها كانت تشرب على حسابي ما كانت تشاء. وربما عرضت أنا كؤوساً على لعينات مثلها أو على ملاعين مثلي. أعرف جيداً لعنتي وجنوني عندما أشرب مع الملاعين. أنا أيضاً

---

(١٢) ورطة.

أسترضي الملاعين بكرمي الزائف لكي أروق لهم ويعتبروني شخصية مهمة. تفو على هذا التبجح! حككت رأسي وذقني وفكرت في «المبتدئة». لا يبدو عليها أنها استولت، خلال نومي، على ما تبقّى عندي من نقود كما تفعل الساقطات. لا يمكن لها أن تفعل لأنّ فاطي هي الوسيطة بيننا. لا بدّ أن يكون قد ضاع مني بعضها أو أسرفته!

عرضت على الآنسة، في خجل وارتباك، ساعة «المنبّه»، وعلبة من السردين، وأخرى من التون، وتفاحة وموزة، وكيلواً من الأرزّ الإسباني الجيد، وأيضاً حذاء ما زال في حالة جيدة، إنْ كان لها أخ لعين مثلي يناسب قياسه. فرحتُ بعثوري على هذا المؤونة.

ـ ألا تحشم؟ أتستهزئ بي؟ هل تريد أن تقاضي ليلتي معك بهذه الأشياء؟ لسنا بعد في أعوام الجوع.

هكذا بدأت دعواها وكنت من الصابرين.

ـ هذا ما أملكه يا آنسة.

ـ احتفظ بهذه الحوائج لجوعك. ولكي تعرف فأنا لست آنسة. أنا عندي بنت في الثالثة من عمرها تنتظرني. «آنسة، آنسة، آنسة...». هكذا كنت تصدع لي رأسي ليلة البارحة.

ـ لكني لا أملك غير هذا.

أشعلت سيجارة وراحت تدخنها بشراهة على الريق. ليست «مبتدئة» تماماً كما يبدو.

ـ هل أعدّ لك القهوة؟

ـ بارك الله فيك.

لم أعرف إنْ كانت تريدها أم لا؛ لأنّ اللعينة أجابت بطريقة مبهمة. وحينما رأتني ذاهباً إلى المطبخ أرعدت من جديد:

ـ لا قهوة ولا شيء آخر إلاّ ما أستحقه. مائة درهم، هل تفهم؟

ـ لعنة الله عليّ إنْ كنت أملك الآن أكثر من هذه الأشياء.

ـ مصيبة...! (ثم أرعدَت): وليلة البارحة يا أستاذ، أما كنت تتبجح بنقودك تُحلّيها بأشعار عمر الخيّام وأبي نواس وشعرائك الآخرين؟ مسكين! إسمع: لقد وعدتني بمائة درهم. فاطي شاهدة علينا.

انزعجتُ قليلاً لأنّ فاطي هي المسؤولة على تعارفنا. كيف سأواجهها عندما تطّلع على هذه الورطة، رغم أنني أعتقد أنها ستراعي طيشي، وتصدق إفلاسي ولن تعاتبني إلاّ بلطف؟

ـ أنا وعدتك بمائة درهم؟

ـ نعم، يا عمر الخيام. وكان هناك من يدفع لي ثلاث أو أربع مرات أكثر من مائة درهمك، ولكن إرضاء لفاطي جئت معك.

أشعلتْ السيجارة الثانية من الأولى. لا أذكر أنني وعدتها بهذا المبلغ. وحتّى لو كانت تستحقه ليلة البارحة فهي اليوم لا تستحقه؛ لأني أراها على حقيقتها الزائفة. إنها تتبختر لتخفي بؤسها في معطفها الفاخر في شكله، لكنه منتوف بالعثّة في عدة أماكن كأنه من مخلفات عجوز توفيت منذ نصف قرن. لا بدّ أنّها

اشترته من سوق المشتريات البالية أو استغنت عنه زائفة مثلها. أراهن على أنها تتحاشى لبسه نهاراً متجولة في البولفار. ثيابها كلها تفوح منها رائحة الخُرْدَة والبِلى وإنْ كانت نظيفة. أما نظافة جسمها فلا أتهمها كثيراً لولا رائحة إبطيها القوية التي دوختني وأشعرتني في الصباح بالتقيؤ. إنها تحمل في حقيبتها الباهتة اللون معجون الأسنان وفرشاة وقارورة عطر قويّ باعث على الغثيان. إنّ أبّهتها هذه المتباهية بها لهيَ بائرة، لو كانت تعلم!

كان علينا أن نذهب معاً إلى «السوق الداخلي» لكي أستلف من رفيق لي، يشتغل في فندق «موريطانيا»، الخمسين درهماً لها وإلاّ فلتخبطْ رأسها مع الحائط وتَلْعَني إلى يوم القيامة. «إمش قدامي»! هكذا أمرتني المسخوطة أن أسير منقاداً أمامها وهي ورائي.

قلت وأنا أمدّ لها الأوراق الخمس خائفاً من أن ترعد في وجهي على مرأى الناس: «هذا ما استطعت الحصول عليه يا آنسة». وفي صمت أضفت: «يا رابعة العَدوية»! دهشتُ وأنا أرى ملامحها ترقّ فجأة مثل برعم ينفغر وهي تعيد لي «المُنَبِّه» الذي احتفظت به في حقيبة يدها كرهينة. مدته لي بحركة كما لو أنها تهبه لي تذكاراً وتشكّلت على وجهها ابتسامة منحبسة. ربما فكرت أني في حاجة إليه أكثر منها. كان يفوح من المُنَبِّه شيء من عطرها القوي. أَتَمّتْ بسمتها رافضة أن تأخذ أكثر من ثلاثين درهماً. ودون أن تودعني بكلمة سارت في الدرب نحو «ساحة التقدم» وهي تقضم التفاحة. بقيت مبهوراً وهي تسير ولا تلتفت.. وما إن اقتربت من القوس المفضي إلى الساحة حتى اختفيت قبلها. فكرت أنها ستلتفت لآخر مرة ثم تختفي. إنه في

الغالب هكذا يحدث في مثل هذا الفراق اللعين. لا أحبّ التفاتة الوداع إلاّ قهراً. إنها قاسية، والبسمة التي تصحبها قد تكون غير حقيقية. لقد مثلت الملعونة دورها بمهارة.

جلست في مقهى طنجيس وطلبت قهوة مُكَثَّفة. الخُمَار[١٣] يُوَلّد في رأسي قططاً تتخالب وتتماوأ. هذا السوق ـ الذي أحبّه كل ملعون مثلي ـ لم يعد يعني لي اليوم غير القَرَف والبؤس المزري. حتّى مقهى فوينطيس غزا جماليتَه في الساحة بازارٌ Bazar كبير. حُفَرٌ وقذارة وسط الساحة نفسها: زريبة خنازير. اختفت منه كل ذكرى وحنين. حتى هذا النادل لا أعرفه. أكاد أرى الجريمة ماثلة في عينيّ كل من أراه الآن جالساً أو واقفاً يتربص. المكر أراه وأشمه. إنه الرعب بعينه في وجه كل من يجوس الساحة. العدوانية المجانية متحفزة في كل الوجوه الممسوخة. من أين جاء كل هؤلاء الذين يبدو على وجوههم أنهم خرجوا حديثاً من السجن ومستعدون أن يعودوا إليه!؟ لا شكّ أنهم من الذين يوصون رفاقهم على صيانة أماكنهم الحميمة في السجن لأنهم بالتأكيد سيتعمّدون العودة إليه في أقرب وقت. إنه غزو تَتَري. لا أكاد أعرف منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة. لقد شخت معهم، لكن الحياة هنا اليوم تتعفن وتخسأ ولا تشيخ في جلال. حتى الذاكرة تتأفف وتمقت أن تسجل اليوم أيّ شيء مما تبقّى. لم يتغضن ويتجعد وينكمش فحسب جلد «السوقيين» الدائمين بل تفَسَّخ وَتَبَثَّرَ واهترَأ. أكيد أنّ استعادة مجدهم القديم، في مخيلتهم، هو الذي يُشْحِبُ الآن سحنتَهم وينخر عظامهم

(١٣) صداع الرأس وألمه بسبب السّكر.

ويجعلهم يمتعضون من هذا التحول الذي هزمهم في مدينتهم المنكوبة. لكأنّها جثة لم تُدْفَن جيداً. هذا القلب، قلب المدينة في عزّ شبابها مصاب اليوم بِجُلطَة دموية محال أن يسلم منها. شرايينه تتمزق كل يوم. سينفجر...!

On ne sait qui vit qui meurt
On est tout à son malheur
D'être encore là
Quand le soleil vole
en ècclat
René Guy Cadou

سرت في عقبة «الصَّيَّاغين» قاصداً حانة دينز - بار لأشرب ما تيسّر من البيرات. كانت أكثر من العاشرة صباحاً. كنت أوّل زبون، على ما يبدو، لأنهم يفتحون في هذه الساعة. رائحة الليل المخمورة والمُدَخَّنَة ما زالت قوية، تُقيء. شربت الكأس دفعة واحدة حتى أنسجم مع الرائحة الكريهة. قبالة المَشْرَب صورة لهمنغواي غامقة اللون رسمها هاو مبتدئ، لكن كثيراً من الذين يداومون المجيء إلى الحانة سمعتهم يقولون بأنها لوحة نفيسة، وأنّ ثمنها سيكون باهظاً لو أنّ خبيراً رآها وقدّر قيمتها الفنية. «لا بدّ أن يكون رسّامها مشهوراً اليوم، فقد مضى على وجودها هنا أكثر من خمسين عاماً، لكن خسارة أنّ الرسام لم يضع اسمه عليها. إنّ العباقرة يضيّعون لنا كثيراً من الفرص بتواضعهم عندما لا يوقعون لوحاتهم». هكذا كان يهتر زبون كهل يعتبر نفسه المؤرّخ الحقيقي للحانة. إنه يتمنى يوم أن تكون فيه لوحة همنغواي هذه في أحد متاحف العالم المشهورة، وربما أغنت صاحب الحانة. ويؤكد زبون آخر أنه سمع من «دين»

Dean[١٤] نفسه أن همنغواي كان صديقه، وتردد دائماً على الحانة عندما زار طنجة[١٥]، وأنه أعجب باللوحة وشرب كثيراً وهو يردد إعجابه بها ومتنبئاً لمن رسمها بمستقبل عظيم. لقد أراد أن يشتريها بمبلغ يكفي لشراء الحانة نفسها، لكن «دين» اعتذر لهمنغواي بأنه يفضل الاحتفاظ باللوحة الرائعة كذكرى لصداقتهما الغالية، وزيارته الخالدة المشهودة لطنجة وإعجابه بالحانة واللوحة.
أما صاحب الحانة فهو لم يعد اليوم شاهداً على ما زال يقال نهاراً وليلاً لأنه مات منذ سنين[١٦]. لكن هناك من يقول بأنّ الرجل الطيب حيّ لم يمت رغم أنه مدفون في المقبرة الإنجليزية البروتستانتية في طنجة، ويأتي ـ حسب الزعم ـ كل صيف من أميركا أو إنجلترا ليحيي ذكرى حانته ويشرب معه مجاناً كلُّ من يوجد فيها. وهناك أيضاً صورة صغيرة لهامفري بوغارت Humphrey Bogart لا تقلّ قيمة ذكراها عن لوحة همنغواي.
ويؤكّد زبون آخر عريق في التردد على الحانة بأنّ هامفري بوغارت أهدى الصورة بنفسه لـ «دين»، وكان هو حاضراً، وأنّ هامفري بوغارت كان لطيفاً وكريماً وهو أيضاً يشرب معه كلّ من يوجد في الحانة. وكان الزبون العريق يفخر هو كذلك بأنه حصل له الشرف بأنّ يتحدث ويشرب معه مرة واحدة فقط لأنّ زيارته إلى طنجة كانت عابرة، لكنه وعده بأنه سيعود بالتأكيد وسيشرب معه...! الصورة الأخرى المعلقة على نفس واجهة الجدار لا يجرؤ أن يعلق عليها أحد، ولا أهمية لها لأنّ أصحابها

(١٤) صاحب الحانة.
(١٥) لم يزر طنجة قطّ.
(١٦) توفي عام ١٩٦٣.

لم يكونوا يترددون على الحانة حسب قول الزُبُن[17]، الشاهدين على روادها سواء من الذين كانوا قبلهم أو من الذين جاءوا بعدهم أو الذين لم يجيئوا قطّ. لا أحد يعرف من جاء بها ولماذا هي موجودة هناك ولعنة الله على من يقول العكس! في مشهد الصورة سيدة جالسة على كرسيها الفخم تستقبل عجوزاً وحولها حاشيتها. قيل بأنها باربرا هاتن أو هي شبيهة بها، لكن عارفاً آخر له حكاية أخرى: «إنها بطلة في فيلم أُنجز في طنجة. المأساة وقعت في هذه المدينة بالذات؛ فقد أحبّ شاب إسباني فتاة إنجليزية من أسرة دبلوماسية، وحين امتنعت عن مبادلته حبه يئس وانتحر شانقاً نفسه في شجرة حديقة منزلها قبالة نافذة غرفتها وقيثارته متدلية من عنقه». لا أحد استطاع أن يجزم، ولكن كل من ينظر إليها له رأيه فيها. ورغم هذا، فلا يهمّ إنْ كان أشخاص الصورة المعلقة قد زاروا طنجة ودينز ـ بار أم لا. إنهم موجودون في ذاكرات متجولة في هذه الحانة والحانات الأخرى. قد يكون الحيّ منهم ميتاً، والميت حيّاً، أو لا هو حيّ ولا هو ميت. إنّ حياته أو موته يتم الجزم في أحدهما حسب المزاج، وما تهوى أن تسمع أو ما لا تريد أن تسمع: فالمرء بينهم قد يكون اليوم حياً وغداً ميتاً، وبعد غد قد يصبح ميتاً وهو حيّ، أو هو لا وجود له إطلاقاً، لأنّ أحداً من الحانة أو أية حانة أخرى ممسوخة لم يسمع به أو لا يريد أن يعترف به حتى وإنْ سمع به ورآه، في هذه المدينة السعيدة، رغم شقائها.

شردتُ مع ذكريات الحانة التي كانت ملجأ للجواسيس

(١٧) مفرد: زبون.

الأجانب العابرين في مهمّة ونخبتهم المقيمة في المدينة أيام كانت دولية، ومع برّوزغينسبرغ وأورلوڤسكي وكيرواك، مع بولزوجين وتينسي. لا أحد تحدث معلقاً على أحدهم، لأنّ صورته لم تكن هناك، ولأنّه أيضاً كان ممنوعاً على هؤلاء المعلقين أن يكونوا في الحانة في تلك الأيام. تمنيت لو كانت هناك صورة واحد من هؤلاء الذين شردتُ معهم.

أعترف أني لم أكن أنوي التعامل مع «المبتدئة» بخبث وخساسة عندما راقت لي صحبتها في الحانة، لكن الفظيع هو أنّ سلوكها اللطيف المفاجئ قد هزمني.

في بداية السبعينيات، بدأت تظهر بعض العاهرات الفاشلات في دراستهن. ومليكة، هذه «المبتدئة»، كانت واحدة منهنّ. أغلبهنّ كنّ يأتين من مدن أخرى تلافياً للعار العائلي وما قد يستفزه من حزازة وإجرام. ولم تكن للاّ شفيقة وبناتها يشعرن بأيّ حرج عائلي لأنهنّ منقطعات الجذور، ولم تعد هناك أية صلة وطيدة، قريبة أو بعيدة، مع من بقي حياً من عوائلهن. كانت هؤلاء «المبتدئات» مُسْتَعْطِفات في واقعهنّ المزري أكثر مما هنّ محترفات جسورات محتجّات على من يستغلهنّ.

صار بيني وبين فاطي صداقة. هي التي خلقتها بلباقتها وزكتها للاّ شفيقة بوقارها وبركتها؛ فأنا لم يكن من عادتي أن أخلق صداقة حميمة مع امرأة. ربما لأني لم أكن أعرف كيف أخلقها معها وليس لأني لا أريدها. المرأة عاشت دائماً بعيداً عني؛ فهي إمّا مقدسة لا تُمسّ أو أنها مُدَنّسة خَبِيثة. ربما أيضاً أنّي أخشى الاستحواذ والغيرة المجنونة أو القاتلة إذا ما أنا خلقتُ

علاقات وأنا لا أبغي إلاّ حرّيتي.

لم يعد بيني وبين فاطي أيُّ تغزل حقيقي ما عدا الملاطفات والمداعبات التي تخلقها الظروف. لقد تآخينا، ربما على مَضَض لأني أيضاً أشتهيها كما يُجَنُّ باشتهائها الملاعين مثلي. أريدها أحياناً خارج عذرية حبّها التي خلقتها معي. كانت تزيد في حساب السكارى المولهين بها لكي أشرب أكثر مما في جيبي. مجاناً أشرب حتى أبقى أكثر أو هي تُسَرِّب لي شرابها الذي يدفع ثمنه المخبولون بها قائلة لي: «إبقَ، أبقَ أكثر»؛ فأشرب لأبقى أكثر، أنا المُفْلِس المَدْيون لها والملعون. وأحياناً يكون معي زفزاف مفلساً مثلي.

الميــراث

غربة.

لي غربتان:

واحدة هنا وواحدة

هناك.

أيّهما الأغرب؟

لا خيار بينهما،

في زمن المحن،

رغم الوطن.

الضفادع هي التي

لا ترحل من مَرجها.

ما كان لي أن أقول:

سأرحل غداً،

لكن انقيادي

كان قهراً،

وبقائي صموداً

كان هشّاً.

ها أنا ذهبت،

ها أنا عدت.

هذا ما هو أنا الآن.

عاد الهادي من حرب الهند الصينية مبتور الذراعين. لقد عرف لماذا عاد منها ولكنه لم يعرف لماذا ذهب إليها.

لم يكن هو الوحيد الذي ذهب وعاد حاملاً عاهته المستديمة، لكن عاهته أفظع من الذين يعرفهم. عاهاتهم تسمح لهم أن يقضوا حاجاتهم بأنفسهم. ما يعزيه هو أنه عاد لكي يموت في بلده. اللعنة الكبرى ستكون لو أنني مت هناك في العراء وسط دغل فأصير وليمة لأكلة الجيف.

يعتقد الهادي أن الطريقة التي يموت بها الإنسان تحمل غفرانها أو لعنتها.

عندما ماتت زوجته خَلفَها ابنهما الوحيد علاّل في العناية به. اعترف له أبوه أنه أكثر صبراً وإشفاقاً عليه من أمّه. لم أندم على إنجابه كما يقول لأصدقائه.

تتكون ثروة الهادي من معاشه الفرنسي، ودار ذات طابقين، وقطعة أرض، وبقرتين، وبضعة رؤوس أغنام ودجاج.

حياته هادئة. لا يعاني كثيراً من قلق الشيوخ وكآبتهم متحسراً على ما لم يعد يستمتع به. أصدقاؤه ينادونه الحاج الهادي وما حجّ سوى إلى حرب سيق إليها عنوة. لم تكن تعنيه في شيء.

يردد على ابنه علاّل رغبته في الزواج حتى يعفيه من العناية به.

أعرف ما تريده يا أبي، لكني لن أسمح بذلك. رغبة الزواج هذه تقلق علاّل. إنه في حدود الأربعين ولم يتعلم أية مهنة.

لا بدّ أن أشغّل معي ذلك الصبيّ ليرعى البقرتين والأغنام السبع لأواجه هؤلاء المحوّمات حوله. ستستولي على كل شيء إذا نجحت إحداهن في إغوائه والزواج منه.

لقد أوعز له أبوه أن يتزوج هو، على الأقل، لتساعده زوجته على العناية به. وإذا تدخل بينهما شيطان الغواية! إمّا هي أو هو أو هما معاً. لا أحبّ هذا المصير. أنا قادر على العناية بك وأكثر يا أبي. أعرف أنك نصف كاذب. إنها رغبتك الملحّة أنت ولكنك تخجل من قولها.

تجاوز الهادي الستين لكن صحته جيدة. أطال الله عمرك، لكن بعيداً عن إحداهن حتى لو كانت أَغْمَر منك.

لم يكن يشكو الهادي إلاّ من بعض الأرق، لكن علاّل لا يتضايق من تلبية حاجاته في أيّ وقت نهاراً أو ليلاً.

جاءت حليمة المتصابية في عزّ كهولتها مُضَمخة بعطر عربي والسّواك والحِنّاء مدّعية أنها متطوعة لرعاية أبي لوجه الله

فطردتها. ابتعدي عن أبي وإلاّ جعلتك تندمين. لكن أباك يلحّ على زواجه. إختر له واحدة بنفسك. هذا شغلي أنا. إبلع لسانك أنت في هذا الموضوع وإلاّ فلسنا صديقين. إشرب كأسك واهدأ. هذه آخر مرة أتكلم فيها عن أبيك. أنت على حقّ. أنا فضولي. إنه أبوك. أنا أعرف هؤلاء العجائز. أمعي أنا؟ إن كل واحدة من المتهافتات على زواجه منها لا تريد منه إلاّ الميراث وأبقى أنا عاطلاً بائساً أتسكع في الطرقات. كلّهنّ من سلالة الشيطان.

ما يريده أبوه هو امرأة يتمتع معها بما تبقّى له من عمر. إنه يعرف بعض أهوائه، وسمع بعضها من أصدقاء أبيه. بعضهم شاخ معهن سوياً في نفس القرية. اليوم ترملن مثله لكنهن في بؤس.

جَرْدٌ عمّا حدث وربما لم يحدث:

بعضهن يتحدثن معه وينصرفن.

بعضهن يتحدثن معه ويقبلن صلعته وينصرفن.

بعضهن يقبلن ذراعيه المبتورتين وصلعته وينصرفن. وبعضهن يفعلن كل ما سبق ويطلن النظر فيه واقفات، مبهوتات حتى يطردهن اقترابي منه. أمّا العاقرات اللعينات فيقبلن صلعته، ويديه الوهميتين ويرتمين متهافتات على أسفله تقبيلاً وقبضاً باليد. لا يبقى لمن تقبضه في يدها إلاّ أن تتمنى مصّه وإدخاله فيها. أكون بعيداً أو أتظاهر بأني لا أرى كل ما يحدث. وعندما أقف إلى جانبه ينصرفن متمتمات بما لا أسمعه بوضوح. ربما يتمتمن بالشكر والتبرك واليمن.

ذات ليلة، وهو يشرب النبيذ مع أبيه، فكّر علاّل: ماذا سيحدث إذا ما أنا فعلت له ذلك «الشيء»؟ قد يغضب كثيراً أو قليلاً لكنه لا يستطيع أن يستغني عني وينكرني.

من عادة علاّل أن يحمّم أباه مرة أو مرتين في الأسبوع بالماء الدافئ في الصباح، حسب رغبة الأب، لكن مغامرة تنفيذ ذلك «الشيء» الحاسم بانَ بأنه لن يتلاءم إلاّ مع الليل.

في الأيام المشمسة، يُخرِجُ أباه للتمشي عبر حقل أو حقول ثم يرجعه قدام الباب حيث يتقبل زيارات «التَبَرُّك» من أهل القرية وقرى أخرى قريبة وبعيدة؛ لأنّ بركته صارت معروفة في المنطقة كلها بين النساء اللعينات العاقرات والولودات: فهذه ولاّدة بنات وهي تريد ولداً، وهذه لا تلد إلاّ ذكوراً وهي تريد بنتاً. أهو أبي حقّاً صار وليّاً؟

أرامل وشابات يسلمن على أبيه. كلهنّ يتوددن إليه، لكن علاّل يتجول قريباً منه. حين تطيل إحداهن الحديث معه يدنو منها. صمته جافّ، متوتر وسحنته متجهّمة في حضور إحداهنّ، عجوز أو شابة، إذ لا ثقة في الأعمار. إنهنّ وكفى.

المشهد يتكرر كلّما أخرج أباه قدام باب الدار لتبدأ الميمنة. يمثّل علاّل دوره بكل صرامة مع كلّ من تقترب من هؤلاء العجائز، والشابات المصّاصات أو المتصابيات بكهولتهن المهترئة. إنهنّ سواء لديه. أمعي أنا؟

مع أصدقاء أبيه، يبش ويشارك هو أيضاً في الحديث معهم. إنه يسمح حتى لأحدهم بأن يتناول شاياً أو قهوة أو وجبة طعام معهما في دارهما أو في داره.

هذه الليلة جُنّت السماء بمطرها، لكن الهادي لم يعترض على حَمامه الليلي الذي اختاره ابنه. كانت المرّة الأولى التي يُحَمّمُ فيها ليلاً. تناول علاّل كؤوساً أكثر مّما تعوّد عليه. كانت إلى جانبه قنينة نبيذ يشرب منها دون قدح حتى يتغلب على اضطراب يديه الراعشتين. لعلّ حَمام الليل هذا سيساعدك على نوم مريح. أعتقد أنه أفضل من حَمام الصباح. أجاب الهادي بصوت عادي: أتمنى ذلك. كما تشاء يا علاّل. أنت الآن تعرف ما يلائم وما لا يلائم سنّي ربما أفضل مني.

يفرك علاّل الهادي في الحوض الخشبي(١٨) بالصابون والحلفاء بفرح طاغ. لا يدري إنْ كانت ستنجح مغامرته الجهنمية!

يحكي لأبيه عن أشياء القرية. ربما لم تعد تهمه كثيراً. أبوه أيضاً يحكي له عن ذكرياته في الجيش الفرنسي ومعارك ديان بيان فو Diên Biên phu. الحكايات قصيرة جداً، متقطعة: رفيق كان إلى جانبي. شظية فجّرت جمجمته. مخه لطّخَ وجهي. أمعاء رفيق آخر لم أعرف كيف أجمعها وأردّها إلى بطنه حتى جاء رفيق آخر وأنقذني من حيرتي. لقد جاء الإسعاف وعاش المبقور.

إنها نفس الذكريات يحكيها الهادي لعلاّل ولغيره مرات كما لو أنه يحكيها لأول مرة. صياغتها تتغير لكن لا ينضاف إليها شيء نسيه. لا ينقص منها إلاّ كلمة هنا وكلمة هناك.

علاّل مضطرب ويده اليسرى ماسكة الصابونة منزلقاً بها

---

(١٨) بتِيّة.

شيئاً فشيئاً إلى الأسفل كما يفعل هو مع نفسه ليخفف من توتره عندما لا يسعفه الحظّ بإحداهن وإلاّ فإنه لا ينام. العلامة الطيبة أفرحته. مَرْحَى يا أبي! أبعد الله عنّا المُحَوِّمات شابات وعجائز.

لم يستغرق الدلك الرفيق إلاّ قليلاً. الهادي يتنهّد بانتشاء. الرغبة كانت مشحونة. لا كلام بينهما. علاّل استغرقه أيضاً الانتشاء. ربما أكثر من الهادي! إنها راحة ما تمتع بها منذ أن عاد من تلك الحرب الملعونة. رجفات علاّل هدأت وهو يعرق. ومنذ ذلك الحمّام، والحمّامات الليلية التالية، لم يعد الهادي يلحّ على أيّ زواج.

أحسّ علاّل أنه سيعيش مع أبيه في أمان ويقين.

السّقالـــة

إنها المرة الرابعة: وصل إلى نهاية السّقالة، وحين أوشك أن يضع قدمه اليمنى على أرضية الباخرة اعترضه شخص مستعجلاً هابطاً فتوقف ورجع. عبثاً شجعته بالتخاطر(١٩) ليمرّ قبل الشخص الذي يبدو أنه نسي شيئاً في البرّ. رِهاني هو أن يطأ سطح الباخرة. لعنت ذلك الشخص المشؤوم في خيالي وتمنيت لو أنني كنت مكانه لأترك ريكاردو اللعين يمرّ. وسواس العودة العزيزة عليه كان أقوى منه. أكيد أنه تطيّر من ذلك الشخص: أنا صاعد وهو هابط. لا يمكن. فلنهبط إذاً معاً. ليس هذا فألاً حسناً. هكذا يكون قد فكّر ريكاردو؛ فقد سبق له أن رجع إلى شقته متخلّياً عن السفر لأنّ شخصاً يمرّ أمام العمارة بصق. ريكاردو اللعين يرجع من النهاية أو الوسط أو قبل أن تطأ قدمه عتبة السّقالة عائداً ليخضع إلى إجراءات الجمرك الأخفّ من الأولى.

---

(١٩) تخاطر Télépathie: تناقل الخواطر والوجدانيات من عقل إلى عقل على البعد، بغير الوسائل الحسيّة المعروفة.
(المنهل).

لا سفر

صار من عادتي
أن أكون آخر من يصل.
ربما تلافياً لما ينتظرني:
خيراً أو شرّاً.
الصف الطويل
دائماً يذبذب تفاؤلي.
أرجع من حيث أتيت
وأملي ألاّ أرجع،
ولكنني أرجع
فأجد أكثر من صفّ.
وكلّما ذهبت تتوالد الصفوف.
الوصول إلى بداية العبور معجزة.

أليس من الخير لي أن أتمسك بلعنتي

فأبقى حيث أنا!

انتحى بي جمركيّ بودّ يراقب التفتيش من بعيد:

ـ ماذا يحدث لرفيقك؟ إنها المرة الثالثة أو الرابعة على التوالي التي يمنعه شيء ما على المغادرة. في كل مرة يتعلل فيها بأنه نسي شيئاً مهماً في المدينة. هل هو غير عادي؟ وما هو هذا الشيء المهم الذي ينساه في كل مرة، إذا كان هذا لا يزعجك؟

ـ أمّه عجوز مريضة في السبعين من عمرها. (في الحقيقة هي معافاة وشخصيتها قوية لمواجهة وعكات صحتها وشيخوختها) إنه ولد وعاش هنا ولا يريد أن يذهب إلى إسبانيا فقط من أجل العمل الذي لا يجده في طنجة. يستمدّ قوته للعيش الهنيء من جاذبية هذه المدينة. لا يعرف كيف يعيش في غيرها إلاّ على مضض. حين يغادرها يبتئس ويفقد لذة العيش السعيد.

أردت أن أضيف إليه بأني أنا أيضاً يحدث لي أن أعود إليها من بداية أو نصف طريق سفري إلى مكان قرِيب أو بعيد عنها، لكني فكرت أن مجنوناً واحداً يكفي حتى لا يُجنّ معنا الرجل.

ـ هل هو أيضاً كاتب أو فنان؟

ـ نعم. إنه يعزف على البيانو. لكنه مجنون بالقراءة أكثر. يقرأ حتى وهو يأكل.

لم أبالغ؛ فهو تعوّد منذ صغره على أن يقرأ في الحمّام ولا يفتح الباب إلاّ بعد أن تتوسل إليه والدته عدة مرات واعدة إيّاه بتلبية شراء ما كانت قد رفضته له. لم تكن تفي دائماً بوعدها

فيعود هو أيضاً إلى غَيِّ لعبته في تحدّي رغباته المرفوضة، لكنه إذا عرف أنّ أخته كانديدا هي التي تدق فإنه يتمادى في عناده: فلْتُفلت حاجتها في سروالها أو في الشرفة كما فعلت مرة عندما باغتها الإسهال. وإذا دقت أمّه من أجلها وتخلّى عن جِرانه[٢٠] فإنه يزفر من منخريه وفمه مُدَمْدِماً: إنّ المرء لم يعد يعرف فيمن يثق!

ـ يتكلم جيداً الدارجة المغربية.

ـ نعم، لأنه عاش مع الأطفال المغاربة في صغره أكثر مّما عاش مع الأطفال الإسبان.

يبدو أنه قد أطال الحديث، لكن لا، لأنّ رتبة الضابط على كتفه ألغت فكرتي. ابتسم شاكراً وابتعد.

نتراءى في بعض الحانات، لكننا لم نتكلم. لا شك في أنه سيسألني عن حالة ريكاردو عندما نلتقي. فضوله شديد. ربما حبّاً لاستكشاف نفسية غريبي الأطوار وليس عن سوء نيّة، كما يبدو.

منذ فترة وأنا أريد أن أكتب شيئاً عن ريكاردو، لكن الكتابة تمتنع بقساوة وتستعصي كلما عزمت على أن أكتب عن أشخاص أعرفهم جيداً. «من تحبّه قد تحبّه أكثر أو أقلّ، إنْ شئت». جملة جاهزة. لا بدّ من جملة فيها انجذاب أقوى من هذه. ما هكذا ينبغي لي أن أبدأ الكتابة عنه. إنه شائع بين الكتّاب أنّ البداية صعبة. هذا ليس صحيحاً دائماً إذا عرفت

---

(٢٠) التعاصي عن الانقياد.

كيف أتصالح مع شيطان الكتابة. الصعب عندي قد يكون في اختيار عنوان مناسب حين انتهائي من نصّ. إنّ العنوان ينبغي أن يكون مثل عُرْف الطاووس أو ذيله. هذا ما يقوله لي خبيرو الحذلقة في اختيار العناوين.

لا أدري لماذا خطر لي ما قاله سيوران ونحن نستقل التاكسي: «إنّ شاعراً يفتقد الشعور بالموت ليس بشاعر كبير».

لقد تعودنا على احترام الفلاسفة، لكن ألا يمكن للمرء أن يحلم بما هو مقدس دون أن يكون له مآل فيه! أن نكتب فقط لكي نحلم وليس لأنْ نحلم من أجل إنقاذ أنفسنا مما ينتظرنا أو ينتظر غيرنا من دمار ماحق. أتساءل ولست ضد أن نكتب لنطرد عنا مخاوف الخطر.

ـ لقد فتشوني في الرجوع أكثر مما فتشوني في الذهاب.

ـ من حقك أن تتخلى عن السفر ومن حقهم أن يقوموا بواجبهم.

ـ لا شك أن الضابط الذي كان يتكلم معك سألك عني.

ـ نعم. وأجبته بأنك نسيت نقودك وأشياء مهمة لا يمكن لك أن تعيش بدونها في إسبانيا.

ـ ما هي؟

ـ التوابل التي تطبخ بها طاجينك في إسبانيا.

تلافيت الحديث من جديد عن وسواسه الذي يقهره على الرجوع وهو صاعد إلى الباخرة. بدأ يثير شبهات السلطات. شبهات جنون وليست شبهات مُريبة في التهريب أو الإجرام.

ريكاردو يحبّ أوتيليا لأنه يشفق عليها فقط. إنها مصابة بالقَمَه[٢١]. قد يهجرها حينما تبرأ لأنّ حبّه لها مقرون بمرضها. هذا ما استشففته من خلال حديثه اللعين عنها. حبّه لها لن يطول. سيطول إذا كان قد عاهد نفسه بصدق؛ فهي لا تكاد تأكل أكثر من قطعة خبز مُحَمَّصة مُزَيَّتَة، وفنجان شاي معطر بالياسمين ودانون. وإذا حدث أنِ استسلمت للإلحاح عليها وتناولت أكثر من هذه الوجبة في اليوم فإنّ اللعينة تفرغ المحتوى في المرحاض كما يفعل كل الملاعين المصابين بهذا المرض متظاهرين بالبراءة والإذعان الكاذبين أمام المشرفين على علاجهم في المستشفيات أو رعايتهم في منازلهم.

فكرت أنّ حكمة الحياة قد تُقَرِّبنا من الموت العزيز علينا في أعماقنا، لكنني لا يغريني بساط الموت السحري؛ فأنا أحسّني وارثاً من شقاء الحياة الفانية أكثر مما أنا وارث من نعيم الموت الخالد. ريح الموت تعانق فصلاً واحداً وأنا أحبّ أن أعانق كل الفصول. الموت ليس إلاّ موت الأنا الواقعية، فلأعانق فصولي قبل أن تتلاشى. فما أبعدني عن: «ونعمة كانوا فيها فاكهين»!

باغتني والسيارة تتجاوز جمرك مدخل الميناء:

ـ ألا تعتقد معي أنّ خنزيرتي تفكر فيّ حتّى حين أكون بعيداً عنها؟

ـ ربما، لكنك أيضاً لا تملّ من حبك لها رغم أنها طردتك عدة مرات كما قلت لي. هناك من لا يريدون أن يحبهم أحد وهم يعانون من مرض مزمن.

---

(٢١) فقدان الشهية للطعام Anorexia.

ـ هذا صحيح، لكنهم ينسون أنه لولا الصليب لما كان المسيح.

قد يباغت حديثه عن أوتيليا أيَّ غريب كما لو أنه يعرفها شخصياً، ومستعدّ أن يعرف حالتها المرضية العَصيّة ويُبدي رأيه في علاقتهما المتوترة.

ـ أنا لا أومن بالقهر الذي يشعرني بكبرياء الخلود. حقّاً إنّ المسيح خلق حياته بموته. ولد ليعمّق خلاص الإنسان بألمه، وليؤكد رسالته، لكنه كان حرّاً في اختيار مصير آخر.

أوتيليا تسافر مع ريكاردو وهي طريحة سرير المرض في مالقة تنتظر موتها. وعندما ماتت خفَّ حديثه عنها، لكن حسرته عليها هي أيضاً غامضة: فلا هو تذكّرٌ عميق ولا هو نسيان سطحي. شيء ما بينهما. قد يعرفه هو نفسه وقد لا يعرفه. لقد ماتت منذ سنوات، لكنها لم تدفن إلاّ في السنة الماضية. «ماذا تريد أن يحدث لها! لقد عاشت حية ميتة». هذا آخر ما سمعته منه عنها.

ومثلما هو الحديث معه متاهة إذا بدأ يتكلم عن أوتيلياه فكذلك هو حديثه إذا بدأ يتكلم عن أمه ألفونسينا الطاغية والمستبدة. عاملتني في صغري بجفاء وقسوة لأنّ أمها عاملتها بنفس القسوة فجسّدت نفسها المقهورة في العناية بأختي كانديدا وحبّها المفرط لها مستحضرة روح جدتي القاسية في نفسها ومستعيرة ما فاتها معها في روح أختي المحظوظة: هكذا كان ينبغي لك أن تحنّي عليّ يا أمّي كما أحنّ أنا على ابنتي كانديدا. لستُ شاهداً على جدتي روساليا البالغة القسوة، كما تزعم أمّي،

لكن ما ذنبي أنا؟ ومن يعتني بها اليوم سواء كنت هنا أو في إسبانيا؟ (إنّ تعلقه بأمه هو شعور غامض: يمتزج فيه الحب والتذمر البالغ الحساسية الصبيانية).

أمه تعيش وحيدة. تخدمها صبية مغربية. تكاد تقتصر خدمتها على شراء الحاجيات الضروريات؛ فما أن تأمرها بفعل شيء حتى تنحيها برفق: «اتركيني أفعله أنا بنفسي يا بنتي. أنت ما زلت صغيرة على فعله، لكن انتبهي حتى تتقني فعله جيداً في المرة القادمة». وفي كل مرة قادمة تتولّى أمّي ما تأمر الصبية بفعله.

أخته كانديدا تعيش مع زوجها وأولادها في ألميرية. تأتي مرة كل صيف إلى طنجة. وأحياناً تفضل قضاء عطلتها مع حَماتها في موتريل Motril.

أسلاف ريكاردو من أمه جاءوا إلى طنجة عامين قبل بداية القرن العشرين ثم توافدت عائلة جده من أبيه نازحة من نيرخا Nerja بعد الحماية الاستعمارية في المغرب. جده من أمه هو أول من أنشأ مخبزة عصرية خارج المدينة، في طريق سيدي بوعيد، يوم كانت أبوابها تقفل في المساء وسكانها من النصارى واليهود أضعاف أهلها المسلمين. يهودها قليل منهم برابرة. جمعوا بين الحِرَف، والعِرافَة والسحر الأسود والمُسالِم. استوطنوها لاجئين من الأندلس يوم سلّم أبو عبد الله محمد مفاتيح غرناطة التي ضيّعَ حكمها كرجل وبكاها كامرأة[٢٢]. فمن بين عشرة

---

(٢٢) إشارة إلى ما قالته له أمه
Porqué lloras como mujer por un reino que has perdido como hombre
لماذا تبكي كامرأة على مملكة ضيعتها كرجل؟

نصارى ويهود كان يمرّ مسلم واحد. لم يكن يعمر المسلمون المدينة إلاّ يوميّ الأحد والخميس آتين إليها من البوادي إلى السوق البرّاني حاملين بضائعهم على دوابهم أو على ظهورهم.

المرأة المغربية ـ إذا مرّت مستعجلة ملفوفة في حائكها ـ تستلفت نظر النصارى أكثر من اليهود الذين يتكلمون نفس لغة المغاربة ويمارسون بعض الطقوس المتشابهة. ظهور المرأة المغربية كان نادراً حتّى في أزقة المدينة.

كان قد زار طنجة دولاكروا، ألكسندر دوما، مارك توين، روبين داريو، بلاسكو إيبانيث، بيوباروخا ووالترهاريز (مراسل جريدة التايمز اللندنية)[٢٣]، لكن شهرتها الدولية لن تبدأ إلاّ مع الحماية (٣٠ ـ ٣ ـ ١٩١٢) والمصادقة نهائياً على نظام منطقتها الحرة في ١٢ ـ ٦ ـ ١٩٢٨ بعد تعديل اجتماع باريز (١٨ ـ ١٢ ـ ١٩٢٣) من أجل مشروع تدويلها.

ريكاردو لا يشدّه الحنين إلى زيارة أمّه وإنما حبّه لطنجة هو الأقوى. لا يعرف كيف يتخلص من حنينه إليها المسوس به. قال لي مرة: «كل من يجيء إلى طنجة يريد أن يفتضّ بكارتها دون أن يكون سيّدها المختار». قد تجد بعضهم من أهلها الأصليين يحنّ إلى عهدها الاستعماري، رغم ويلاته، لأنه كان يسود نظام وأمن. لم يكن يعترض أيّ لصّ معتوه أحداً سائراً إلى بيته بسيف أو خنجر كما يحدث اليوم حتى في عزّ النهار وفي

(٢٣) ولد في ٢٩ ـ ٨ ـ ١٨٦٦. كان يراسل التايمز اللندنية. جاء إلى طنجة عام ١٨٨٦. مات في مالطا عام ١٩٣٣. ودفن في المقبرة الإنجليزية في طنجة حسب وصيته حيث عاش أكثر من خمسين عاماً.

وسط البولڤار. ومن يستطيع أن يتدخل من المارّة؟ لقد كان أهلها حماة لكل معتدى عليه وأصبحوا اليوم مجرد متفرجين، بنوع من الهوس والسادية، على كلّ عراك دام.

عام ٩٣، زرت الناظور بعد مرور أكثر من نصف قرن على ذلك الرحيل الجماعي المجاعي. استدعتني جمعية إلماس للقاء مع الجمهور. قرأت الفصل الأول من الخبز الحافي. الحوار كان حماسياً وحميمياً مع الشبان وفاتراً ومتزمتاً مع بعض الكهول.

أتذكر بيتنا الموشك على الانهيار، وآكلة الجيف تحوّم في السماء، وإقلاع هجرتنا مشياً على الأقدام إلى طنجة، وأشجاراً لا حياة فيها ووجوه الصغار والكبار كالحة مسخها بؤس الجفاف. عمري كان سبع سنوات.

عبثاً حاولنا العثور على من يتذكر أحد أعمام أبي في القرية المجاورة لـ «سوق أحد بني شيكر». أمي كانت قريتها من «أرهوانن». وعندما بدا لي العجوز، حارس مسجد القرية، متذبذباً في تذكر عائلة أبي المهاجرة فكرت أنه ربما لم تكن هذه هي القرية التي نبحث عنها. ولكي أعزّي نفسي أكثر مَسّني هاجس بأنها حقّاً ليست هي قرية أبي(٢٤). لقد قيل لي عنها الكثير في صغري ولا أجد اليوم شيئاً منها. كل الذين هاجروا لم يعد منهم أحد ليسترجع أصله وسكناه ويقيم. من يعود منهم يفعل ذلك فقط لصلته بأرضه (التي عار عليه أن يبيعها) ولإحياء الرحم مع من بقي فيها حيّاً من أهله والترحم على من مات

---

(٢٤) قرية محمد أولاد مسعود محمد ـ حسبما قيل لي فيما بعد.

منهم ثمّ يرجع إلى مهجره مطمئنّاً على أنّ أحداً لم يلعنه من الأحياء والأموات. كان العجوز يتكلم دون حسرة. قال لي أحد المصاحبين:

ـ لا شك أنك تشعر بالحنين...!

ـ أبداً. أنا فقط مندهش من أنني ولدت هنا.

راقني سكوته الذي هو ربما أبلغ من تعقيبه على كلامي. كنا سنخوض في نقاش لن يتمّ إلاّ بإفساد ما تبقّى من الرحلة الشيّقة في قصدها لو أننا استمررنا في تحليل الحنين الحقيقي والحنين الزائف. أيُّ حنين إذا لم تكن هناك ذكرى حميمة نحو مكان ما! في تلك اللحظة امتزج الواقعي بالخيالي متيقناً من أنني لن أرجع أبداً للبحث عن مسقط رأسي. ربما لم أولد هنا. حتى وَهْم الحنين لم يخالجني للبحث عن مكان ضبابيّ مفقود. ربما كنت طفلاً هنا ولم يعد يعني لي شيئاً هذا «الهنا».

القرية شبه مهجورة. أشجار التين بعيدة عنا. المراعي غائمة. شبان يدخنون تحت سور قديم. بيوت صغيرة لا لون لها. ينظرون إلينا بفضول وارتياب. عُصْبة أطفال توقفوا قليلاً ثم استأنفوا لعبة القفز على ظهر رفيقهم ـ الحصان الخاسر. طفلة واحدة حافية القدمين تتفرج. شعرت بضيق قابض للقلب فَلَمَّحْتُ إلى رجاء عودتنا إلى الناظور. يبدو أنّ مصاحبيّ تفهّموا مزاجي العكر منذ أن بدأنا نفتش عن جذور عائلة أبي المفقودة. البؤس يعشش في القرية شبه المهجورة. يكاد اليوم يشبه الأمس! في البعيد، بعض الفيللات شيّدها مُحدَثو الثراء كما قال لي أحد الرفقاء.

بـابـــا دادي

عشقيات.

حبّي لكِ أَبْقَى

وكلُّ «عِشْقياتي» زوال.

قال: وبماذا أجابت؟

قلت: صفعتني ثمّ استكانت

في حضني.

قال: هذا هو عشق طنجة

في المحال.

فقلت ما لم أقل!

الثانية بعد الزوال. في الغالب، لا يكون عنده الآن أكثر من زبونين أو ثلاثة وربما واحد أو لا أحد. يستمتع بقنينة نبيذه إذا كان وحيداً. يفخر اليوم بأنّ أحد زبائن مطعمه وحانته في بوردو كان طالباً في الحقوق وصار فيما بعد وزيراً مرموقاً في

إحدى الحكومات المغربية. سمّى محلّه «حانة طنجة» لكي تكون مدينته حاضرة معه دائماً في المغتَرب. العمال والطلبة صاروا يعتبرون حانة طنجة سفارتهم ودادي سفيرهم وكلّ أوراق اعتماده حبهم له ولطفه معهم. حتى طبخ أمّهاتهم كان يطبخه لهم. كل واحد وحنين شهيته لما كانت تطهوه له أمه.

حينما زار الوزير اللامع طنجة استضاف بابا دادي للعشاء معه في فندق فخم، لكن بابا دادي تعجرف كعادته لأنه لم يكن قد تناول بعد كمية كؤوسه التي تليّنه وتجعله حميمياً وفكاهياً وأحياناً مهرّجاً لطيفاً بين زبائنه المداومين. أعلن للرسول الذي جاء بصفة رسمية فخمة ليشرفه بالدعوة المرجوة: «فلْيَأْتِ هو بنفسه إلى محلّي ويشرب معي نخباً هنا كما كنا نفعل في بوردو حالمين بالاستقلال والرجوع إلى الوطن». تكلم بابا دادي باحتفال ضَخ فيه ما يعتقد أنه يستحقه من الاعتبار أمسِ في بوردو واليوم في طنجة رغم أن لا أحد أهانه.. أثارت الذكرى انفعاله وهيّجته حتى أوشك أن يلقي خطبة لولا أن أوقفته زوجته دومينيك بحزمها المعهود: «دادي، إنّ السيد الطيّب ينتظر».

أعاد عليه الرسول، بوجهه البشوش المندهش، ساعة الحضور واسم الفندق ثم مدّ له مبتسماً مظروف الدعوة. هدأ بابا دادي ووافق شاكراً. عرض على الرسول باحتفاء أن يشرب شيئاً، لكنه اعتذر بعمله الرسمي مشيراً إلى التاكسي وسائقه الذي يصحبه أمام سيارته الفخمة لإرشاده في المدينة:

- إنني من الرباط ولا أكاد أعرف إلاّ قليلاً هذه المدينة الجميلة.

ـ عد إلينا متى تشاء. هذا مكانك بيننا. إننا هنا نمزح ونمرح مثل عائلة كما ترى.

شرح له زبائنه العقلاء المُداومون الحاضرون منهم تلك اللحظة التاريخية في حياة بابا دادي والغائبون منهم الذين لم يحصل لهم شرف حضورها أنّ مكانة الوزير لا تسمح له رسمياته بأن يشرفه بزيارته في حانته الشعبية ـ رغم سمعتها الوقور ـ كما كان طالباً في بوردو. إنّ تنازله معقول إذا لبّى دعوة الوزير. مثل هذا الحدث لا يمكن أن يخفيه بابا دادي عن أحد حتى يعلم الجميع من هو بابا دادي في الحاضر ومن هو دادي في الماضي. ففي المساء انتشر الخبر فامتلأت الحانة الصغيرة عن آخرها بمن كان في الصباح ومن لم يكن بل حتى من كان شبه غضبان معه مؤقتاً جاء ليتصالح معه. وما كانوا ليصدقوه لولا حجة الشاهدين الحاضرين. شرب الجميع نوبة على حسابه، لكنه ظل هو يشرب على حسابهم حتى أعياه السكر وبَحّت صَوْتَه الأغاني التونسية والجزائرية القديمة التي يغنيها بحنين بكائي: (مسيكة، صليحة، حسيبة رشدي، الشيخ العنقا وراوول). كان ينهي كل فصلة من أغنية بضربة قوية على الحاجز الخشبي تهتزّ لها الكؤوس وما أكثر ما انقلبت أو تكسرت فأخرجهم أخيراً شبه مطرودين سكارى مثله أو أكثر منه هاتفين: عاش بابا دادي، معانقينه مقبلين صلعته متمنين له العمر المديد. ولو أنه تركهم على هواهم لباتوا معه، غير أنه أغلق الباب في وجه الأطفال الكبار كما يسميهم، الضاجين الضاحكين المبتهجين إلى حدّ الجنون، وصعد هو لينام لأنّ الدعوة محددة مع الوزير في اليوم التالي.

بابا دادي يحتفظ بثلاث بدلات لم يلبس أية منها منذ أن

اشترى في نهاية الخمسينيات مطعمه الكبير وحانته الصغيرة التي تتصدر مدخله من أنطوان الذي هيّجه حنين العودة إلى موطنه بوردو مثل حنين دادي إلى طنجة. لم تكن هناك أية مناسبة خلال أكثر من ربع قرن تستحق أن يلبس واحدة من بدلاته الثلاث كما كان يفعل في بوردو. أنطوان ماتت زوجته، وأولاده الثلاثة أنهوا دراستهم وبقوا في مدينتهم منتظرين أن ينضمّ إليهم. أما دادي فلا أولاد له وزوجته متماسكة في صحتها وصمتها الحكيم لولا سمنتها التي تفاقمت بعد استقرارهما في طنجة. وتخليداً للذكرى التي أصبحت مشتركة بينه وبين أنطوان ترك دادي للمحلّ اسمه الذي عُمِّدَ به: «مطعم ـ حان بوردو». انسهل الأمر؛ لم يكن الفرق الذي دفعه دادي كبيراً بعد أن أعجب أنطوان بمطعم ـ حان طنجة في بوردو. استخدما المقايضة في صفقتهما مثل أخوين يتقاسمان الميراث تبادلا بالتراضي. كانا قد سافرا معاً وشربا في حانة طنجة أنخاباً على شرف طنجة وبوردو. دومينيك تتولى تسيير المحل أحسن من دادي في غيبته بشهادة الزبائن الدائمين الطائشين أكثر منه. ولكي يبرهن أنطوان على أريحيّته لم يغير هو أيضاً اسم «مطعم ـ حانة طنجة». أعجبه الإسم كثيراً دون أن يفكر فيه أو يتمناه.

اكتفت دومينيك بِكيّ البدلة الرمادية وضمختها بعطرها لتخفف عنها رائحة الكافور[1] القوية المنبعثة منها. علقتها في مشجب المطعم وفتحت بابه الرئيسي المقفل ـ منذ موجة الكساد ـ لعلّ الهواء يطيّر عن البدلة، التي لم تعد صالحة للبيع حتى في

(١) يعادل النفتالين.

سوق الخردة كما قالت له، مَزيجَ رائحتها الغريبة المُغثية. لم يعد هناك وقت كاف لتنظيفها في المصبغة لأنّ مثل هذه الخدمة المستعجلة لم تستورد بعد من الخارج.

وهما في علية الحانة، التي اتخذاها غرفة للنوم، عاتبته على مسرحيته الهزلية ودوره الذي مثّله فيها بتهريج أمام رسول الوزير والزبائن يصفقون بطيش واستهتار. لم يكن من عادة دومينيك أن تتكلم كثيراً فختمت لومتها: «إنني أيضاً أهتر ما دمت أعرف أنك لن تتغير في شيء». وكان لا بدّ له من أن يدافع عن نفسه قبل أن يغلفهما صمت النوم: «من حقّي أن أمزح مع أصدقائي كما أشاء».

المطعم كبير. مؤثث ببعض التحف الخشبية والخزفية التي جلبها معه من بوردو. ليس في القاعة من زينة تذكارية رياضية. لقد علّقها موزعة على جدران الحانة لأنها تذكارات تخصه هو وحده دون زوجته التي لا تهتم بالرياضة من أيّ نوع، ثم هي تليق بالحانة أكثر من المطعم الذي تشرف هي عليه. زوجان من القفازات: واحد ظلّ يحمله معه إلى مجهول مغامرة هجرته من طنجة دون انتصار يذكر، والآخر ذكرى انتصاره على خصمه بالضربة القاضية في بُوردو - إذا صدقنه - لأنه، بين الصدق والكذب، هو مسكون بتضخيم ومضاعفة أقلّ ما يغنمه. الزوج الأول من القفازات أحاطه بصورتين: واحدة لإسماعيل السطيطو الذي انسحب في الوقت المناسب دون هزيمة نكراء ليصير صاحب مطعم ليلي صغير معظم رواده من رواد الحانات الليلية والمشبوهين، والأخرى لعبد السلام بن بوبكر الذي كان أقلّ حظاً وما زال ينتظر في تطوان مباراة الثأر من خصمه كيد جابيلان

Kid Gabellan الذي انتصر عليه في كوبا منذ أكثر من خمسين عاماً في بطولة العالم التي لم يكن مؤهلاً لها، لكن لأسباب تجارية دُفع بعبد السلام إلى خوضها فكانت هزيمته النهائية عائداً منها إلى بلده ليجترّ اضطرابه العصبيّ ـ وقيل وُضِعَ له شيء في شرابه قبل أن يلعب ـ والزوج الثاني أحاطه بصورتين: جو لويس Joe Luis الذي خاض ٥٤ مباراة انتصر في ٥٠ منها و٤٣ ربحها بالضربة القاضية K.O والأخرى لمحمد علي (كاسيوس كلاي قبل إسلامه). وفي ركن عند مدخل الباب إحدى صوره كمن ينتصب وسط الحلبة في الشوط الأول. تُبَيِّنُ خلفيةُ الصورة أنها أخذت له في أحد استوديوهات التصوير، ثم صور أخرى أقدمها في العشرينيات من عمره وأحدثها بعد أن تجاوز السبعين رغم أنه ما زال متشبثاً بالسابعة والستين منذ سنوات كما لو أنه يعلن عن سنّه لغريب جاءت به الصدفة إلى حانته.

لم يعد بابا دادي يستغلّ المطعم إلاّ نادراً. وكل طلب للأكل ينبغي أن يكون مسبوقاً بيوم على الأقل. المدينة أصيبت بنكبتها السياحية الأولى منذ حرب ٦٧. وجاءت حرب الخليج لتجهز على ما تبقّى من أمل في إعادة تنشيطها الاقتصادي الملعون.

لا يسمح بابا دادي لأحد بأن يشرب خمراً في مطعمه إلاّ مصحوباً بوجبة ولو خفيفة، ولا يسمح لامرأة مغربية بأن تدخل محله إلاّ إذا صحبها رجل وبادية عليهما الرزانة والاحتشام في لباسهما وسلوكهما حتى تبقى لمطعمه هالته التي عُرِفَ بها.

دومينيك هي التي تشرف على إدارة حسابات المحل. تجلس

إلى مكتبها في مدخل المطعم ولا تتدخل أبداً في شؤون الحانة. لها وقارها بين الزبائن. حتى بابا دادي نفسه لا يكلمها إلاّ باقتضاب وبصوت خفيض إذا اقترب من مكتبها. الرواد الذين تتبادل معهم التحية وبعض الكلمات قليلون. كأس شرابها من النبيذ تضعها تحت مكتبها. تجد دائماً عذراً مناسباً لكي تؤجل دعوة من يريد أن يعرض عليها كأساً. يأتيها بابا دادي بكأسها ويأخذ الفارغة في صمت. لا يسمح للنادل، الذي يساعده في المَشرب، إلاّ نادراً بأن يخدمها. قال زبون: ما يطيل العشرة بين رجل وامرأة هو أقل الكلام بينهما.

مارس دادي الملاكمة في الثلاثينيات أيام كان يبيع الجرائد وهو دون العشرين من عمره. يفخر أيضاً بأنه أول شيوعي «طنجوي». وعندما استولى فرانكو على الحكم انضمّ دادي إلى الجمهوريين. سَمَّوا هنا أيضاً فرانكو باكيطو Paquito[٢]. الاعتقالات التي بدأت في المنطقة الشمالية قلّما كان يعود ضحاياها إلى منازلهم. إعدامات كل يوم في هذه المدينة أو تلك. وضع طنجة الدولي كان يحمي ـ نوعاً ما ـ الجمهوريين المقيمين فيها، لكن الرعب الذي أشاعه باكيطو في المدن الأخرى امتدّ إلى طنجة وتفاقم مع وفود أنصاره وجواسيسه الذين خلقهم نظامه هنا فتقلصت مناهضته علانية. شعاره السرطاني هو: الفاشية هي أيضاً ديموقراطية. مع أنه كان أكثر ديكتاتورية من هتلر وستالين. ماذا كان ينتظر من باكيطو الذي لم يكن فقط

(٢) تصغير باكو Paco. الصيغة هنا للاستصغار والاستهزاء وليس للتحبب كما هو معروف بين أصدقائه الفاشيستيين.

يرتاب في المثقفين بل كان يحتقرهم ويعدمهم؟ وفي أفضل الأحوال يُسجَنون في El hacho: سجن سبتة الرهيب الذي لا يقلّ فظاعة عن سجن ألكاطراث Alcatraz[٣]. بين فترة وأخرى كانت تحدث تصفية حسابات خارج المدينة أو في دروبها الليلية. تبادل طلقات نارية بالمسدسات أو السكاكين بين الروخوس (الشيوعيين) والفاشيستيين. أحياناً يتبادلون الشتائم بين مقهى فوينطيس والسنترال[٤]. وقد تنتهي الشتائم واللعنات إلى طلقات نارية في نفس ساحة المقاهي. خلاص: إن نداء مغامرة الهجرة بدا لدادي الشاب أقوى من استمرار الصراع هنا مع أنصار باكيطو.

هاجر دادي إلى بوردو عبر وجدة والجزائر. رفاقه الروخوس افتقدوا فيه أهمّ عضو في خليتهم. لقد نجا بجلده لأنه غادر طنجة في بداية أيار/مايو عام ٤٠ واحتلتها إسبانيا في ١٤ حزيران/يونيو من نفس السنة بقيادة الجنرال أسثينو Asceno لفرقة المِحَلّة Mehal-la.

في عام ٥٣ كنت أعمل في مقهى الرقاصة[٥] نادلاً في النهار وبائع سجائر مهرّبة في الليل عندما ينسحب بائعوها النهاريون من السوق الداخلي. يأتي دادي كل عام مرة على الأقل في سيارته الشيفرولي Chevrolet أو الدوفين Dauphine لإحياء

(٣) جزيرة صغيرة للولايات المتحدة، في جَوْن سان فرانسيسكو. ألغي عام ١٩٦٣.

(٤) المقهيان يوجدان في ساحة السوق الداخلي.

(٥) الرقاص، بالدارجة المغربية المحلية في طنجة، هو مبلّغ الرسائل من مدينة إلى أخرى. يُجمع على رقّاصة.

الرحم مع أهله والمدينة أمّ المدن (حُرَّة المدن) المغربية في عزّ شبابها ومجدها يوم أن كان بعضهم يعتقد أنها جزء من جغرافية أوروبا. هندامه دائماً أنيق، برّاق بقمصانه وبنطالاته الفاخرة التي يغيرها أكثر من مرة في اليوم. كانت معروفة هنا، لكن دادي يتقن اختيار ألوانها المنسجمة مع فصل السنة الذي يجيء فيه وقامته السامقة وشقرته الڤيگينگية. كان أحد زبائني الدائمين في النهار. في الليل (ليله) يتيه ليحيي صلة رحمه مع المواخير متفقداً من عرفهن قبل أن يهاجر إلى الخارج في ملابس الهارب من المدينة، مستكشفاً من طوحت بهن الحرب الأهلية الإسبانية، مفضلاً بغايا أوروبا الشرقية اليهوديات، مستقبلات زبائنهن في حومة واد أحرضان، في بيوتهن الصغيرة المفتوحة أبوابها دائماً إلى آخر الليل، ذات ستائر كالحة، الباقيات هنا رغم اندحار النازية، والأندلسيات، لأنه لم يزر إسبانيا منذ أن غادر طنجة قبل أن تحتلها قوات باكيطو اللعين. الفرنسيات لا يهفو إليهن هنا إلاّ إذا زغت به إحدى نزواته، لأنهن ينتظرن عودته في بوردو حاملاً لهنّ معه هداياهنّ المفضلة: شرابيل مزركشة[٦]، وقفاطين، وأساور فضية، وقلائد، وكحلاً، وحِيّاء، ومَراوِد. كل عام وأنتنّ بخير إذا جاء إلى طنجة قبيل رأس السنة حيث تسبقه الهدايا في البريد. غرامياته البطولية معهن غالباً ما يحسمها بعراك دام مع غُرَمائه المشاكسين فرنسيين وجزائريين وسلاحه ضرباته القاضية حتى وإن كان خصمه يحمل سكيناً أو مطواة، حتى وإن كان اثنين أو ثلاثة. تصوّروا ملاكماً يستعين بسلاح. يا للعار!

---

(٦) نوع من الأخفاف المغربية.

هكذا يقول. أما المغربيات فيخصص لمعشوقته ليلة كاملة في فندق لندن العتيق المفضل لديه بأرضية غرفه الخشبية. يطلب أن يؤتى له بأعتق نبيذ إسباني، وطاجين لحم بقر مع اللوز والبرقوق والبيض المسلوق أو ضأن مع البطاطا البلدية بالزيتون على مجمر ناره خفيفة من مطعم الريحاني أو حمادي القريبين(٧) من فندقه لأنهما أشهر مطعمين في المدينة في الطبخ المغربي وغيرهما باطل.

في إحدى جولاتي الليلية، شارباً على قدر ما في جيبي كأساً عند خاكوبيطو وكأساً في بارخينيرال، التقيت دادي قدام الجامع الجديدة هائجاً منهزماً كأنه تعارك مع ثلاثة أو أربعة. سكران، وجهه مخموش، يُهَذِّر، واعداً إياها بالخنق والقتل، خابطاً بلكمات قاضية في الهواء. فامة البيضاوية. لا يمكن أن تكون إلاّ هي. دادي يستطيع أن يرفعها باليمنى أو اليسرى إلى أعلى من مستوى قامته الفارعة، لكنها هي أيضاً تستطيع بقامتها القصيرة الضئيلة أن تستخضعه راكعاً قدامها بنزواتها المغوية وزوغانها الغجري.

ـ هل رأيتها؟

ـ فامة؟

ـ نعم.

ـ مرت منذ لحظة في اتجاه زنقة الناصرية.

ـ مع من؟

---

(٧) الأول كان يوجد قبالة «الجامع الجديدة» (يُنطق هنا هذا الجامع مؤنثاً) والثاني في زنقة الناصرية.

أجبته بخبث حتى أتسلّى بهيجانه:

ـ مع شاب.

ـ بنت الحرام. يلعن دينها. هذه الليلة سأقتلها.

وليس هذه أول مرة يدفنها حيّة.

زهـــور المـوتـــى

تغزوني دموعي.

من خلال أفكاري.

ربما ضُعْفاً فكرتُ في نفسي،

أو في أحد.

ليس البكاء هو البكاء.

قد يخجل الحزن

من نفسه أحياناً

عندما يغزو المقهورين.

لا مصالحة مع السَّفّاحين.

لي لحظات أسرقها

من الفرح الشارد.

ربّما أعيتني ثقتي في نفسي.

ربما كآبة اليوم هي وليدة الأمس،
ربما النسيان المتخاذل لا يسعفني.
من يستطيع أن يعيد مجد اللقاءات
في الحانات التي خَرَّبها التتر؟
تلك التي أفرحتنا
فيها الأحزان الجميلة. . . !
أَهُوَ أَرذَل العمر أم هو بئس المصير؟
زمن سيأتي ليقول:
لا هذا ولا ذاك.
إنّما انتهى ما انتهى.
ويعود الأمل المشحوذ
إلى محرابه.
أَيُّ أمل هو الأمل
إذا كان اليأس يُغَذّي رضيعنا. . . !
إنها كلمات قد تُحزن ولا تُفرح،
ولكنها بين بين.
وقد تكون هذه
أو تلك الكلمة.
إنّك الحاضر الذي لا يسعف إلاّ نفسه.

لكَ زمانك وبعدكَ لي نفسي لنفسي.

لا أُعلن نفسي وحيداً

شاهداً على الخراب.

إنّما الجميل يتراءى من خلال سرابه.

أَهُوَ الحزن؟ أَهو البؤس؟

أَم هو بئس المصير؟

عسى أن تذكر معي

تلك التي وأنت الذي

استكنا معاً في حضن التذكار.

عندما سيصبح العالم غارقاً في الدم، فإنّ طنجة لن تغرق إلاّ عند حدّ العَقِب. هذا ما قيل قاله سيدي بوعاراقية وعلّقه بابا دادي شعاراً لحانته.

جالس في استرخاء، قرب المطبخ، على مقعده ذي المِسنَدين، الذي اشتراه، منذ فترة، خصيصاً لقيلولة شيخوخته التي بدأ يعترف بوطئها الغَلاّب على كبريائه وإنْ كَتَمَه، لكنه ظاهر للعيان، لكن لا أحد يستطيع أن يهزم كبرياءه الشامخة إلاّ في حدود النكتة والمزاح اللذين يستجيب لهما مزاجه المُحتَرِس.

إنه الآن في شبه إغفاءته. تطلّع إليّ. عيناه الصغيرتان الزرقاوان أَخبَتْهُما قليلاً الثمانون عاماً، لكنهما ما زالتا تلمعان عندما يُشْرِقُه حديث شائق. السنوات التي يحتفظ بها لنفسه لم يعد أحد يلحّ عليه بالبوح بها. ما عاد يستجيب للمُزاح على عواهنه.

ماذا يهمكم من معرفة سنّي الحقيقية؟ فضوليون. مشاكسون. ندمتُ على معرفة بعضكم. ستخرأون في أفرشتكم وسراويلكم عندما تبلغون سنّي. عافاكم الله رغم أنكم خبثاء.

آ...! جئتَ. مرحباً. جلستُ قُبالته في الركن، قرب المدخل، تحت صورته في عزّ شبابه التي أُخذِتْ له بملابس الملاكمة في هيئة متحفِزة. التَوَرُّم غزا مفاصل يديه وقدميه. منذ سنوات وهو يعاني من النّقرس وإنْ كانت نوباته تغزوه على فترات متباعدة. أو ربما أجْهَدَ نفسه بعناد في أحد تدريباته التي يمارسها أحياناً مع أحد تلاميذه القدامى في الملاكمة حتى يُقنع المُزّاحَ أنه ما زال يقاوم. في إحدى المرات، زاره معي محمد برّادة فوجدناه جالساً قرب بوّابة المشرب ويداه تحت بطّانية صغيرة لفّ بها ركبتيه. أرانا يُسراه المتورمة أصابعها: «هذا ما فعله بي خاتمي الذي لم أنزعه منذ أكثر من أربعين عاماً. لقد دفعته للإصلاح. إنه هدية من دومينيك يوم فتحنا هذا المكان». صوته واه لكن امتيازه أنه لا يئنّ إلاّ قليلاً ولا يبالغ في الشكوى والتذمر. ربما يعتبر أن الحزن شيء حميمي شخصي. أنفه تَجَمَّعت وتجعدت فيه حصيلة أكثر من ستين عاماً من الشراب أكثره نبيذ وجعّة وأقلّه كحول قويّ مثل الماحيا[٨]، والتيكيلا والأَبْسَنْت Absinthe[٩]، التي أكثر منها في بوردو وتخلّى عنها إلاّ عندما

---

(٨) شراب يصنعه اليهود من التين. وهو شبيه بالاڭمي التونسي المُستقطَر من جذع النخلة.

(٩) شراب مسكر مرّ وقوي يستخرج من الأفسنتين. سمِّي في القرن التاسع عشر شراب الملاعين. من بين الذين أدمنوا عليه ڤرلين. صدر في فرنسا قانون بمنعه رسمياً لكنه ما زال يباع خِفية.

يزوره بحار متقاعد مقيم في جبل طارق. لم يحلق منذ أيام. ربما لا يعرف كيف يحلق جيداً أو يعرف ولكنه صار يتكاسل ويهمِل هندامه. يداه ترعشان في بداية الكؤوس الصباحية. جَنْبَه، على طاولة صغيرة، بيرة دون كأس، كعادته. أنا لم أرعش بعد. ما زلت أتلذذ بالفطور مصحوباً ببيرة باردة وطعم السيجارة الأولى. سعال خفيف فقط لكن لا تحمرّ به عيناي دامعتين غير أنّ دوري آتٍ. بابا دادي يتناول الأدوية ويعترف بمفعولها لكنها لا تثنيه أبداً عن جِرايته في الشراب. كل شيء له مكانه في الجسم: الأدوية تذهب إلى مكانها والأطعمة والأشربة تفعلان مثلها والباقي خرافات ـ كما يقول.

خرج كريم من المطبخ حاملاً مزهرية الزنابق التي كانت تحبها المرحومة دومينيك. وضعها فوق مكتبها ولثم الباقة. لم تنجب فتبنته رضيعاً. لم يزر قبرها قط منذ أن بنيناه. قال له بصوته المبحوح الواهن: أدخل إلى المَشرب وكفى من النفاق. إنها ليست مدفونة هناك.

ظل المكتب خالياً حتى من بابا دادي. لن أكون أفضل منها عندما يجيء أجلي، لكن هذا لا يؤلمني ما دمت لا أنتظر أيّ عزاء من الملاعين الذين فَرَّخَهُم هذا الزمن اللعين. رفعت سبابتي ووسطايَ فوافَق بهزة من رأسه على طلبي: بيرة له وأخرى لي. إيه. نعم. بارك الله فيك. الله يكثر من خيرك.

في السنوات الأخيرة، كثيراً ما صار يحاور نفسه، غير أنه ما زال يقاوم خَرَف الشيخوخة. وضع لنا كريم البيرتين. تبنته ماما دومينيك في نفس الفترة التي شجعت فيها بابا دادي على

الزواج من فتاة مغربية، يكبرها اليوم بأكثر من أربعين عاماً، حتى يتخلص من نزوات عشقه وفسقه ولعلّه ينجب منها أولاداً وكذلك كان. أنجب منها ـ كما تمنت له دومينيك ـ ولدين وبنتاً. يتابعون اليوم دراستهم. البنت أكثر اجتهاداً من أخويها كما يقول بابا دادي. إنه لا يدلل أحداً منهم، لكنهم يمازحونه عندما يكون مزاجه رائقاً. كريم تخلّف في دراسته واهتمّ بالرياضة. استغنى بابا دادي عن البار ـ مان فاحتل كريم مكانه. الأزمة الاقتصادية أيأست كل التجار الصغار. الحياة ما زالت تدبّ في المدينة، لكن مجدها الذهبي ضاع(١٠). طنجة غادرتها ثروتها الذهبية لكن روحها باقية. هكذا يعزّي المفلسون أنفسهم في حكايات الشتاء التي لم يعد فيها من غنيمة الصيف إلاّ القليل. لا أحد يتساءل عن كيف يمكن إنقاذها. أسطورتها تُغَذي الصمت الذي يلفّها في انتظار ما سيحدث. أسطورتها أقوى من تاريخها. امتيازها أنها لم تفقد كل روحها رغم صدام الحضارات فيها، وأنّ كل واحد يمارس فيها موسَوِيتَه، وعيسَوِيتَه ومُحَمَّدِيتَه بتسامح، لكن يبقى أنه رآها من رآها ولا يراها اليوم من يراها إلاّ من خلال غابرها. أَسْطَروها بدون مهارة فَمَيَّعوا ما تَبَقّى لها من صلابة عَراقتها.

فَهِمَ بابا دادي من حركة يدي اليمنى حول عيني وإشارتي باليسرى نحو كريم أنه ينتحب. لقد تنحى جالساً في أقصى قاعة

---

(١٠) بعد الحرب العالمية صارت طنجة مركز الذهب والتهريب الطاغي في كل شيء مثل السجائر المهربة والجواهر والدعارة الدولية والمضادات الحيوية Antibiotiques.

المطعم. ناداه دون أن يتحرك من مقعده. جاءه ماسحاً عينيه. مدّ له خمسين درهماً. اشرِ زهورها التي تحبّها وزهور الموتى[11]. نسيت اسمها. بائعو الزهور يعرفونها. زرها غداً أو متى تشاء إنْ كنت ما زلت تتذكر قبرها. ربما ذهبتُ معك!

(١١) يقصد زهور القُقَحان Crisantemos وهي عادة يُزار بها مقابر المسيحيين يوم فاتح تشرين الثاني/ نوفمبر ترحماً على الموتى المؤمنين.

وجـــه ماجدلينـــا

غيرة.

أرى ما أرى.

قد يعجبني ما أرى،

لكني لا أستطيع

أن أعيش ما أرى.

ربما.

قالت: لا تستحقك امرأة غيري.

قلت: لستِ الوحيدة بين كل النساء.

قالت: كم عمر كلّ نسائك؟

قلت: عمرهن واحدة متعددة.

قالت: مسافتك معها؟

قلت: ما يقربنا ويبعدنا.

قالت: وبينهما؟

قلت: أحياناً أنا، أحياناً هي،

أحياناً لا أحدنا.

قالت: لا أصدّق أحداً.

وجه ماجدة أو ماجدلينا Magdalena ـ كما أسماها بيننا أحد عشّاقها الإسبانيين ـ يتغير ثلاث مرات أو أكثر كل يوم. ماجدة هو اسمها الذي تحتفظ به لنفسها. قد تبوح به لأحد أَعِزّائها في لحظة حميمة. لا يهمّ إنْ كان هو اسمها الحقيقي. ولكي نزكّي اسمها الخفيّ عنّا أسميناها بيننا أمّ الخير. وربما من هذا الإسم الذي شرفناها به اشتقّت كلمة موخير (امرأة) بالإسبانية حسب اجتهاد بعض اللغويين العرب.

وجه مجدلينا الصباحي، إذا هي سهرت أو إذا هي نامت في آخر الليل واستيقظت باكراً مُرغَمَة، فإني أتخيّل أن يكون لونه ليمونياً أو ربما زيتياً، أما بعد القيلولة فقد يصبح لون وجهها برتقالياً وفي المساء قد يشرق ألواناً زاهية.

أتذكر وجه مجدلينا الزاهي ـ وعمرها أقلّ من العشرين ـ (أيام زيارة بواخر المارينز إلى طنجة باستمرار). عليك أن تكلمها يومذاك، كانت مثل نمرة ليست في نزوتها التناسلية إذا تحرّش بها شخص لا ترغب فيه.

جاءت ماجدة أو ماجدلينا أو أمّ الخير من تطوان في أواخر الخمسينيات صحبة أمّها زَهرة أو «زهيرو» كما دللتها صُحَيباتها. هي أيضاً كان لها مجد قحبها الجميل بين الإسبان وعساكرهم.

اليوم لها تقاعدها القحبي دون توبة خالصة.

ماجدلينا ـ كما يحب أن يدعوها عاشقها الإسباني وتحب هي، وأمّ الخير كما نحب أن ندعوها نحن الذين حبّبنا اسمها بيننا حتى في أرذل عمرها المتصابي ـ نادراً ما كانت تعاشر «المغاربة»: رجالاً ونساء. فحتى لهجتها المغربية فيها لُكْنَة إسبانية من أهل الجنوب، وأحياناً تُطَعِّمُها بكلمات غجرية؛ لأنّ أحد عشاقها العابرين كان غجرياً.

وجهها يميل إلى الطول، أنفها كليوباتري، شفتاها في حجم حبّة فراولة كبيرة مشطورة، وما تَبَقّى قد يثيرنا، قليلاً أو كثيراً، عندما نعشق امرأة عادية مرحة كان لها جمالها المحدود غير منتظر منه الصمود أكثر من عمر شبابها.

ذات مرة، في حانة إشبيلية، طلبت منها أن أنام معها فرفضت بعجرفة قائلة:

ـ لا يروق لي القحب مع المغاربة.

ـ لماذا؟

ـ لأنهم لا يدفعون جيداً. إنهم وحشيون في الفراش. وقد يركلونني ويصفعونني دون أن يدفعوا شيئاً. أحدهم بصق على وجهي عندما طلبت منه ما اتفقنا عليه. يحسبون أنفسهم ماتشوس Machos وغيرهم الأجانب مجرد مُخَنَّثين.

بعد سنين، لم يعد لزيارة بواخر المارينز وجود إلاّ عابراً. جيوبهم لم تعد منتفخة بالدولار ومواخير السوق الداخلي الدولية أغلقت في نهاية الخمسينيات. ولم يبق في طنجة إلاّ قلة من

الجالية الإسبانية. كان الإسبان قد خلقوا في طنجة (بدءا من عام ٤٠) عادة العيش في الشوارع. وحينما ذاقوا العيش فيها رفض الكثيرون منهم العودة إلى بلدهم المجاور بعد خروج الاحتلال الإسباني (١١ ـ ١٠ ـ ٤٥) لأنّ طنجة كانت فردوساً لهم إذا قورنَت مع إسبانيا فرانكو.

كانت مجدلينا قد بدأت تهرم وأنا مثلها فلا عيب من أن أعيد عليها طلب نومها معي. لم تجبني بشيء. الحانة خالية من الزبائن. عاهرتان تتحدثان بهمس. قبّلتْ الأكبر سنّاً الأخرى بحميمية. غبطتهما على تلك القبلة اللذيذة. تمنيت لو كنت بينهما.

راحت مجدلينا تطلب كأساً تلو كأس لنفسها وللنديمتين العاشقتين على حسابي. تركت مجدلينا تبتهج. إنه يومها. لم تحك وتنكت كعادتها. بين لحظة وأخرى تزفر. تشرد. تدخن حابسة الدخان. أكره مثل هذا التدمير التدخيني. وجهها يبسم ثم يعبس ثم يعود إلى إشراق يوحي بانفجار ضحكة ابتهاجية أو هيستيرية. لم يحدث ما كان متوقعاً سوى أنها لم تكفّ عن طلب الشراب لها ولزميلاتها الحانيات[١٢]. أنا صامت لا أبخل عليها وعليهن.

شرودها وصمتها يقلقانني. أهي تظنّ أني أنتقم منها؟ أن أعانق جسدها. هذا ما كنت أريد، في الأمس أو اليوم. لم أعد مهووساً بطراوة الجسد وتبرعم نهوده وبروز ربواته أو انحناءاته أو ثنياته أو انسجاماته أو تناسقاته. ما يهمّني الآن في ماجدة أو

---

(١٢) نسبة إلى الحانة: نديمات.

مجدلينا أو أمّ الخير وما شاءت من الأسماء هو شوقي إليها في ذلك اليوم الذي رفضتني فيه. ربما الجنس المحض هو الذي شوّقني إليها في ذلك اليوم. أما الآن فلا أطمح إلاّ إلى دفء حنيني يذكرني بذلك اليوم الذي كنت فيه وحيداً أو أردت الليلة أن أعانق جسداً بحب أو مجرد دفء ولمسات وهمسات ووجود جسد لصقَ جسد حتى أشعر بوجودي ـ إنْ ذلك يتمّ بلسماً للأمس أو رغبة للآن.

قبضتْ يدي بشدة. قالت ووجهها راغب في غموض:

ـ هل نذهب أو نبقى أكثر؟

ـ كما تشائين. هذا المساء لك ولي منه ما تغدقين.

ـ إنك شرس. تعال معي.

ابتسمتْ وطلبت كأسين أخريين لنا ولمن تسترضيها رغبتها أن تشرب معنا. ماذا يهم اليوم من غد! إنها رغبتي ورغبتها. رغبتنا جميعاً. من الراغب الأكثر؟ من الراغب معنا؟ لا يهمّ.

استسلمتُ لرغبتها الكئيبة والمُسِرّة. كنت أحسّ أنيّ لا أهينها. يكفي أنها رغَّبتني في الحجّ معها. لا يهمّ أمسي معها أو هو يومها معي. لا مواعيد لي مع أيّ جسد في أيّ يوم حتّى مع من أحبّ. يأتي يوم ومعه جسده وحبّه، ويأتي يوم ومعه حبّه وجسده، ويأتي يوم دون جسد ودون حبّ، ويأتي يوم يَتَجاذَب فيه الشوق والجسد. هذا ما أحسستُ به مع مجدلينا في مسكنها.

في حجرة مسكنها هذا، الوشيك على الانهيار، لها فيها ذوقها الذي حذقته عبر سنين احترافها. خُيِّلَ لي أنّها زينة لا تليق

إلا بالذين يزورون ليلها الوردي في بيتها. ربما هي زينة لها وحدها، وقد تكون لها ولمصاحبيها.

لا أدري ما هي زينة نهارها ووجهها الصباحي قبل قهوتها وسيجارتها الأولى وسعالها الذي قد يستمرّ حتّى سيجارتها الثالثة أو الرابعة. إنني أتخيّلها من خلال من عرفتهن مثلها.

الترهل بدأ يغزوها ثنيات هنا وثنيات هناك عبر جسدها إلاّ ما تحت الركبتين حيث يرغشنا تلامُسُنا. وجهها الذي عرفته مستطيلاً يربّعه الآن الامتلاء والثنايا التي لا ترحم وجه المدمنين على السهر.

التجاذب لم تكن فيه حُمَيًا كبيرة، لكن التلاحم لم يخل من محاولة الإرضاء: منّي إليها ومنها إليَّ مع استسلام غامض. شعرتُ بغزوٍ تتري نحوها. ربما لم تكن تريد تماماً أن تنام معي حفاظاً على نخوتها القديمة. ربما انصاعت لأنها محتاجة إلى نقود. على أنّ كؤوساً من الكونياك وسجائر شقراء لطّفت مزاجنا. تلك كانت آخر ليلة التحمنا فيها: مع حزن خفيف أدمعها ثمّ أفرحنا وأضحكنا. صرنا صديقين. لم أسألها لماذا. ربما كانت بيننا أجمل الأشياء التي نريد أن نقولها ولا نقولها. أهي أسعفتنا الكلمات وأَنِفْنا من قولها أم راقنا أن نكتمها على هوانا؟ إنّ هذا لَمِنْ شأننا وعهدنا ألاّ نبوح بكل شيء أبداً.

نلتقي أحياناً في مطعم الدورادو. وحين لا تكون أو لا أكون يكون ما يكون ولا حقّ لأحد أن يسأل عما هو بيننا من حضور أو غياب. إنه وجهي ووجه مجدلينا. وجهانا في وجه.

حمَّـادي القَـمَّـار

أنا أقامر،

لكي أربح ولو قليلاً،

هذه فضيلتي.

البحر! آه من البحر!

أليس أننا منه وُلِدْنا وإليه راجعون!

إنه أمّنا وليس أبانا.

هذه الهمسة لا يلفظها إلاّ لنفسه أو لمحبيه الذين أحبّوا هذه المدينة التي يُجمّلُها لون البحر ويلعقها زبده. بين ماضيها وحاضرها هناك فردوس مفقود.

حّمادي القمّار لم يكن يهمه مبلغ ما يربح بل لذة الربح ولو كان قليلاً. أحياناً يصبح ما يربحه انتقاماً. اللعب معه يتسم بنوع من العنف المكتوم والحقد والتشفي ممن ربحه في مرات سابقة. ذات ليلة ربح سلسلة ذهبية من لاعب كانت له معه حزازة لعبية فقطّعها ورماها في دورة المياه وصبّ الماء حتى اختفت لأنه فكّر

أنه ربما سيسترجعها منه باللعب إذا خسر هو وربح خصمه. لا شفقة وصداقة في القمار. هذا مبدأه. بعناد وتهور يلعب ليرضي غروره بأنه دائماً سيربح. لا يغادر جلسة اللعب، في المقهى أو الحانة أو في أحد بيوت محترفي القمار حتى يخسر كل ما يملك معه أو عندما لا يبقى حول الطاولة سوى شبه المفلسين وهو الرابح الأكبر.

لقد جُنَّ بأنّ ما يهمه هو أن يعرف الناس، في هذه المدينة، أنه المقامر الشهير سواء كان يربح أو يخسر. إنّ القمار طيش لكنه يثبت فيه ذاته.

عندما بدأ يفلس مَسّه القمار الوهمي. في الحالات الوهمية، يطلب بيرتين أو زجاجة نبيذ وكأسين: كأس له وكأس لخصمه أو لشخصه المُضاعَف. ربح أو خسر فإنه يحتفي بشربهما في نهاية كل لعبة. أحياناً، يُعَنّفُ نفسه في شخصه المُضاعَف إلى حدّ الشتم إذا خسر: كان ينبغي لك أن تضع هذه الورقة هنا أيها الخنز، وهذه هناك أيها الأبله. وإذا تكاثرت أرباحه ضد شخصه المُضاعَف أو مع خصمه الوهمي أو الحقيقي أمامه فإنّ سخاءه يهيج موزعاً إيّاه على من يستحقه من الملاعين الذين يشربون بِعِوَز لاهجين بمجد طنجة الغابر وهم في منتهى الحضيض.

كلّما ربح حمادي القَمّار يتلفظ باسم مُلاعِبه المهزوم بصوت صاخب رافعاً كأسه: خسرتَ يا ولدي. وقد لا يتورع من أن يضيف بتبجح، إذا سبق للاّعب الوهمي أو الحقيقي أن هزمه: إيه! نعم. ينبغي لك الآن أن تعرف مع من أنت تلعب يا ولدي. لا تحسبنَّ نفسك دائماً أنت الرابح الماهر المنتصر.

مقامروه الوهميون يختارهم بعناية حتى يشحذوا فيه ذكاء اللعب. قد يكونون حقيقة ماهرين أو فقط أنهم هزموه عدة مرات بالحظ. بعضهم غشاش أو متهم بالغشّ والمراوغة. ما يهمّه هو السِّجال والصراع مع من يلعب. قد يسمح أن يغشّ الغشاش منهم ما دام هو الخلاّق الواحد للغشّ والصدق، بينه وبين خصمه، حتى يضفي على اللعب أشكالاً من الانفعال والحيوية والحماسة بين الجدّ والمزاح.

حين يوهنه اللعب الذي عادة ما يبدأ في المساء وقد لا ينتهي إلاّ في الصباح فلا مناصَ من أن يختلق خلافاً ولو كان بسيطاً في اللعب لكي ينسحب في الوقت المناسب لينام قليلاً. اللاعبون غالباً ما يلحّون على بقاء الذي يريد الانسحاب، إذا كان من الرابحين.

المقامرون الحقيقيون انفضّوا عنه بعد أن أفلس. لم يعد يحوّم حوله إلاّ المفلسون مثله، لا يهم أقلّ أو أكثر إفلاساً منه.

لا أحد صار يميز بين إفلاسه وعدم إفلاسه التام؛ لأنه، أحياناً، تكون عنده أموال وافرة. لا أحد يعرف من أين يأتي بها. أهو إرث؟ قرض؟ أم هو يربح في مكان يجهلونه!

في طفولته أبدى حمادي هوساً كبيراً بلعبة البليات: كُرَيَّات Billes ورمي القطع النقدية الإسبانية الثقيلة(١٣) في الحفرة على مسافة قلّما ينافسه فيها لاعب ماهر مثله. لكنه حين لا يملك

---

(١٣) كان اللعب بمسكوكتين: مسكوكة صغيرة Perra chica ومسكوكة كبيرة Perra gorda.

كفاية من القطع النقدية أو البِليات يضطرب فيخسر. ولكي يستمرّ في اللعب يضطرّ إلى فسخ سرواله وإنزاله تحت الركبة لخصمه الرابح أو لغيره من اللاعبين أو المتفرجين المنتظرين دورهم في اللعب مقابل بليات أو قطع نقدية. مقايضة إنزال السراويل من أجل استمرار اللعب يمارسها معظم المراهقين الخاسرين مع بعضهم البعض أو يضطرّون للبحث عن البالغين المتعطشين للذة الغضّة بعيداً عن مكان اللعب أو قريباً منه حيث تنتظر التماسيح البشرية وهو أوفَرُ كسباً.

لا يجد اللاعب الخاسر حَرَجاً مُخْجِلاً في هذه المُقايضة ما دام هناك يوم له ويوم عليه.

صار كلّ ما في الكون قابلاً للرهان عليه: عن سقوط المطر أو الرذاذ أو عدمهما في هذا اليوم أو غداً، عن سُحُبية السماء أو صفائها، عن البرق والرعد والبَرَد. ففي هذا المساء، تخاطر حمادي القمار مع شخص على غروب قرص الشمس بدقائق محددة فخسر، لكن البارحة راهن على بزوغ القمر واختفائه في دقائق محددة أيضاً فربح. أحياناً، يتراهن مع نفسه دون أن يتوهم أحداً من مقامريه. حينما يلعب الصولو El Solo (اللعب المنفرد أو الوحداني) لا نعرف كيف يخسر وكيف يربح مع نفسه، لكننا نسمع كيف يعنف أو يعاتب نفسه جهراً على وضع هذه الورقة هنا عوض أن يضعها هناك. في المرات التي يقامر فيها مع نفسه أو مع غيره وهمياً فإنه لا يراهن إلاّ على الشراب مصحوباً، أحياناً، بمبلغ من الدراهم يتصدق به، إذا ربح، على من يرى أنه يستحق الصدقة في القمار والشراب واللواط. لا يراهن على غياب القمر وطلوع الشمس حتّى الصبح

لأنّ النوم يغلبه. لكنه ذات يوم أغراه مبلغ الرّهان على القمر والشمس معاً فغامر حتّى الصباح حارساً تذبذبه بين اليقظة والنوم رفيق حميم له في شبابه وأمين له في رجولته. أما الخصم فقد أيقظوه من شخيره خاسراً. على أنّ هذه اللعبة بين اللاعبين هُواتها نادرون. ويقال إن حمادي القمار هو مبتكرها أو رائدها الأول والمروِّج لها على أوسع نطاق. أما في شهر رمضان، من بدايته حتّى نهايته، (ما عدا ليلة القدر) فإما ربح وإما خسارة وإما تعادل في كل أنواع اللعب إلى أن يختفي القمر وتطلع الشمس إن كان هناك قمر وشمس.

لا تفوته فرصة الرهان عليهما إذا وجد مع من يتراهن؛ لأنه، في هذا الشهر، لا يراهن على وهم الربح أو الخسارة: إذ فرص اللعب مع أشخاص حقيقيين كثيرة. ولعلّ منع شرب الخمر يساهم في الإكثار من لعب القمار وتعاطي الكيف والحشيش واللواط، لأنه أقلّ إثارة للشبهات من الدعارة مع النساء، ولأنه أقلّ كلفة من المحترفات.

قبل أيام من موته، شوهد جالساً على درجة قبالة حانته الشهيرة بما كانت تقدمه من نُقْل جيّد خلال عزّ المدينة. حتى أفراخ الحمام بالأرزّ والعصافير الدورية المشوية كانت وفيرة. كان هو الذي يتسوّق بنفسه ما تحتاجه حانته من نُقْل[١٤] ومزّة[١٥]. الحانة يعرفها أهل المدينة والوافدون عليها من المدن المغربية. لا يُسمع أيُّ صوت سوى صوت أم كلثوم. لا يزين جدران الحانة

---

(١٤) الطعام الذي يقدم مع الشراب من لحوم وأسماك وغيرهما من مخللات.

(١٥) ما يؤكل على الشراب من مملحات وفواكه.

إلاّ صورها في مختلف حفلاتها داخل مصر وخارجها. هناك أيضاً صورة لمحمد الخامس والجنرال دو جول.

سبب إفلاس حانته هو عدم دفع الضرائب التي تراكمت عليه. سُجِن، لكن محسناً كريماً من بين أحد أباطرة بائعي السجائر الغيورين على شهرة حانته أنقذه. غير أنّ حمادي القمار لم يرعوِ؛ فقد استمرّ في جنون قماره ولواطه بما كان يُحْسَنُ إليه. وفي الأمسيات الربيعية التي بدأ يصلها الصيف كان يرى حانته تُهْدَم وتُرَمّم. قيل إنها ستصبح صيدلية. كان يجلس كل مساء أمامها لاعباً الورق مع شخصه المُضاعَف أو مع لاعبه الوهمي شارباً زجاجة نبيذ دون كأس. كل ضربة لترميم جدران حانته كانت تُسْرِع نبضات قلبه. قال لمن كانوا زبناً له: صيدلية! لا عيب...! هذا عمل طيب. سيتداوى الناس، لكن حانتي داوت هي أيضاً كثيراً من الناس. يدخلون عصبيين ويخرجون هادئين، يدخلون بخلاء ويخرجون كرماء. لكن هذا ليس قاعدة؛ فما أكثر ما دخل حانتي إنسان مُسالِم وخرج مجرماً: إجرامه يبدأه في حانتي وينفذه خارجها. من حسن حظي أنه لم تحدث جريمة داخل حانتي، إذ كل جريمة تحدث في حانة فَحَتْماً تُغْلَق.

حمادي القمار كان متزوجاً حانته. منها يستمدّ وجوده. عندما أفلس وأفلستْ معه حانته أفلس معه الكثيرون نفسانياً، لأنهم كانوا يستمدون مثله حميميتهم من وجودهم فيها.

الأطعمة التي يقدمها مع كل نوبة من الشراب ـ أسماكاً ولحوماً ـ لها سحر لذتها حتى لتبدو خرافية. الغريب هو أنّ النوع والجودة لا يتأثران بربحه أو خسارته في القمار. إنه يعرف ما يفعل كما يقولون عنه.

حمادي القمار لا يراهن دائماً على ما هو كوني وشمولي: فقد يأخذ حفنة من المساويك[١٦] التي نخلل بها أسناننا ويقول لك مراهناً: كم في قبضة يدي؟ وإذا خرج زبون يراهن على رجوعه أو عدم رجوعه. يراهن على وصول القطار في وقته المعين أو تأخره، على مباريات كرة القدم وكل أنواع الرياضات، على عدد الموتى الذين سيدفنون في مقابر الديانات الثلاث. حتى مقبرة الكلاب، في حيّ بوبانة لم تسلم من رهانه. على أنّ أغرب رهان هو عندما راهن شخصاً مشهوراً بعراقة ضرطه على أن يضرط ثلاث ضرطات متتالية فضرط الضّرّاط الثلاث المُراهَن عليها وأهدى لحمادي القمار ثلاثاً أُخَرَ إكراماً لمغامرته على «الضَّرْطِية».

جنون حمادي القمار أصبح لا حدّ له. صار تسلية حتى بالنسبة للذين يكرهون القمار. ذات يوم ذهب مع شخص عريق في جنون القمار مثله إلى مقبرة مرشان فراهنه ظُهراً على عدد الذين سيدفنون في صلاة العصر فربح، لكنه راهنه على عدد الأطفال الذين يدفنون في جميع الأوقات دون صلاة المسجد - لأنهم أبرياء لا يحتاجون إلى استغفار أو دُعاء: إذ أنهم من جنّة الوجود إلى جنّة الخلود ومن الله إلى الله دون شيطان فخسرتُ لأنه ما كان ينبغي لي أن أراهن على أرواحهم.

ظلّت هذه الزلة تعذب حمادي القمار فصار يهاب الأطفال ويشعر بذنب كلما رأى طفلاً.

---

(١٦) خُشيبات أو عُوَيدات لتنظيف الأسنان.

عشية موته قيل إنه كانت عنده أموال ورثها من أخيه، لكنه باح لعارفيه متألماً أن أخاه الذي جمع أمواله من بخله الشديد ترك لآخر عشاقه أضعاف ما تركه له. ولذلك فقد تعمد حمادي القمار أن يقامر بلا مبالاة بكل ما تركه له أخوه. قامر جنونياً فخسر كل ما كان يملكه مع مقامرين شديدي المراس مستغلين سكره وحزنه على ما تركه له أخوه من ضآلة الميراث ـ هما اللذان كانا يتقاسمان نفس الأهواء اللوطية نحو غلام واحد من المدينة أو وافد عليها. قيل إنه خرج من حانة خسارته الشاطئية في حالة حزن شديد وشرود بالغ. ربّما تحت سكر مكتوم. وفي لحظة عبوره السكة الحديدية خذلته مقاومته. كانت قاطرة توزيع عربات السلع تمرّ في صمت فدهسته صادمة رأسه الذي كان مائلاً أكثر من جسده إلى الأمام فمات في المستشفى.

عـزلــة

أحلم،

أحلم حتى ينوب الحلم

عن الحلم

فأرى ما أحلم.

المحبة كائنة،

لكن الحوار شخصي.

نحن في المقصورة امرأة وابنتها وشخص وأنا. رأيته يرفع جنبه الأيسر ليطلقها. فتحت مصراع الباب بسرعة وسحبت حقيبتي الصغيرة وخرجت إلى الممرّ حابساً تنفسي. نادراً ما أغثتني فَسوة مثل هذه التي أطلقها هذا الضبع الملعون. لكأنه أكل وجبة ضفادع أو نصف دزينة من البيض وربما لم يذهب إلى المرحاض منذ أيام. المرأة أيضاً خرجت إلى الممرّ باحثة عن مكان في مقصورة أخرى هي وابنتها الصغيرة ملقية عليّ نظرة تعجب مستاء. أجبتها بحركة من رأسي مستنكراً ما حدث. القطار

يقترب من المحطة. هنا أصيلة هنا ننزل. وداعاً الرباط. ليست هذه أول مرة أفعل فيها هذه النزوة الجميلة. في السنة الماضية ألغيت سفري من الرباط إلى القاهرة لأني أكلت أومليت بالفطر فاسدة وأعطوني رقم غرفة الفندق ١٣ ويوم سفري الثالث عشر من الشهر وكان كلبي جوبا مريضاً يحتضر فرجعت إلى طنجة. لا سفر!

راجلاً مشيت إلى المدينة. الساعة ما زالت باكرة للذهاب إلى مطعم «الأخوات الثلاث الأمازونيات» اللطيفات بالتناوب: فمن نظرة الاثنتين الخادمتين في القاعة أعرف أين ينبغي لي أن أجلس. أما كبراهنّ فمزاجها دائماً رائق ولا يتعكر قليلاً إلاّ في أيامها الشهرية. حقيبتي خفيفة. قصدت ممشى البحر. إنه أحمد. بطيئاً يمشي. يداه خلفه. استوقفته. لم نتراء منذ سنوات. شربت معه آخر مرة في حانة الپيلو Pilo. ما أكثر المرات التي راهنت فيها مع نفسي ومع غيري على أن أراه مصحوباً بأحد فلم أفلح. إنه يقدس تَوحُّده. صافحني صامتاً برخاوة. يصافح إلى حدود نهاية أصابعه. ومحظوظ من ينال منه هذه الثقة. ابتسمنا. مشينا في رضاء. صعب أن تكلمه بغتة. لا بدّ من استئلاف اللقاء. قال دون أن ينظر إليّ كأنه يحاور نفسه:

ـ وطنجة؟

ـ ما زلت أسكن فيها، لكنني لم أعد أعرف ما يستجدّ فيها. لا أكثر من مقهيين أو ثلاثة وشقّتي التي لم يسقط عليّ سقفها بعد. لم تعد لي عاداتي القديمة فيها يوم كنت أتجول في أزقة مداخلها ومخارجها.

ـ شِختَ إذن!

ـ هي التي شاخت أكثر مني. حنّطوها...!

ـ من خان الآخر؟

ـ تناكرنا دون أن نفترق.

ـ العقوق ضروريّ. إنه يجدد الألفة.

أعرف أنّ أحمد يمارس هذا التمشي عبر الشاطئ أو يذهب إلى كهف الحمام مروراً بمقبرة اليهود. كيلومترات يمشيها كل يوم إذا لم يمنعه المطر الوابل أو العاصفة العاتية.

يوم من أيام نهاية الخريف. جلسنا على الرمل تظللنا صخرة. السماء غائمة وريح خفيفة والبحر ينذر بالهيجان. أخرج من سلّته الخيزورانية زجاجة نبيذ وكأساً صغيرة وزيتوناً وجبناً عربياً وخبزاً من الشعير تعجنه والدته وينضج في فُرن الحيّ. قاسمني زاده. تكلمنا قليلاً عن الصيد البحري في أصيلة الذي ما زال يحتفظ ببساطته وعن ليل المدينة الآمن أينما شئت أن تذهب. لم يعد يذهب إلى برج «القريقية» ليشرب زجاجته، كما يفعل في بعض الليالي، لأنّ الشبان يزدحمون جلوساً على حوافي سورها ليتعلموا السمر.

De mis soledades vengo
A mis soledades voy
Entiendo lo que me basta
Y solamente no entiendo
Que para estar conmigo
Basten mis pensamientos
Lópe de Vega

لوبي دي ڤيغا[١٧]

طقوس أحمد كما رواها لي أخوه خليل.

حصل أحمد على تقاعده النسبي ومبرره هو إما أنه لم يعد صالحاً للتعليم أو أنّ التعليم لم يعد صالحاً له. إنه صار فجأة ضد القيام بالواجب الرسمي. صار كل ما هو واجب مكروهاً.

له في منزل الأسرة حجرته التي لا يدخلها إلاّ هو. إخوته الأربعة تزوجوا وظل هو يعيش وحده مع والدته. بينهما صمت جليل. تحفظ القرآن والأحاديث النبوية ولها ثقافة شعبية نادرة. مشرفة على التسعين ولا شيب في رأسها ومثلها أولادها.

الوجبات الثلاث لها أوقاتها: الإفطار في التاسعة، الغداء في الواحدة والعشاء في التاسعة. وأيّ تقديم أو تأخير في الوقت المحدد يبقى الطعام عند عتبة باب الحجرة. احتجاجه هو أن يخرج ويتناول وجبته في أحد المطاعم الشعبية.

سألت خليل:

ـ وعندما يمرض؟

(١٧) ترجمة محتملة:
من عزلاتي آتي
إلى عزلاتي ذاهب
أفهم ما يكفيني
ولا أفهم فقطَ
أنه لكي أكون مع نفسي
تكفيني أفكاري.

ـ لا نعرف هل هو يمرض أو لا يمرض لأنه لا يشكو من شيء. لم يستنجد قط من أحدنا. فضلات طعامه يرميها خارج المنزل حتى لا نعرف شهيته لما قُدِّمَ له من طعام. مرة صرخ في الليل. سُمِعَت ضجة. أطلّت الوالدة من غير أن تدخل. باب الحجرة مفتوح ليل نهار. كان نائماً. الطاولة منقلبة. ركلها كابوسه. بعض محتواها تكسّر: زجاجة نبيذ فارغة وكأسان وقنينة صغيرة لا أحد يعرف ماذا كان فيها؛ لأنه هو الذي ينظف حجرته ولا يترك أثراً لشيء تَكسر. أما سرّ الكأس الثانية فلا أحد يعلمه. لا تكون دائماً فوق الطاولة. أحياناً تظل هناك ملأى أياماً ثم تُفْرَغ. قد تبقى فارغة أياماً حتى يعاد ملؤها. لا أحد منّا يجرؤ على مخاطبته. نحييه في صمت. قد يردّ على تحيتنا بنظرته أو بانحناءة رأسه إذا راق له مزاجه. ضوء حجرته أحمر باهت. لا يطفأ في الليل. لا يقرأ ولا يستمع إلى الإذاعة. قبل أن يعتزل كنّا نسميه دودة الكتب. اليوم، حتّى مكتبته اختفت. لم يبق إلاّ راديو R.C.I.A. لا نعرف إنْ هو ما زال صالحاً أم لا لأنه لم يعد يستعمله. في صباه، كانت العزلة تلازمه حتى حين يكون مع الآخرين على مضض.

ـ وماذا يعمل وحيداً في حجرته؟

ـ يتأمل ويدخن ويشرب نبيذه دون أن يعربد. إنه لا ينتظر أحداً ولا يريد أن ينتظره من شاء أن يكون. أحياناً يغيب أكثر من يوم ولا أحد منّا يدري أين يكون. لا أحد يعلم إن هو ظل في المدينة مقيماً في أحد فنادقها دون أن يخرج منه أو سافر إلى طنجة التي يحبها منذ زمان بعيد.

بين أحمد ومدينته عزلة بدأت منذ سنوات. المحبة من بعيد لكن الحوار شخصي إلى الأبد.

أخوه خليل يقول إن عزلته اختيار وليست حالة مَرَضية كما يتوهم الناس. مرة دخل إلى البحر وظن من رأوه أنه لن يخرج. غاب عن أنظارهم تماماً، لكنه بدأ يطفو ويغوص عائداً حتى رأوا قامته النحيلة منتصبة على الشاطئ.

الحوار الوحيد الذي يرونه هو بينه وبين الشريف المجذوب الذي يشعل سجائره الواحدة تلو الأخرى بأعقابها. لا يطلب إلاّ سجائر من الذين يعرفهم. يرفض النقود. يقال بأنه في شبابه كان فحلاً مع النساء. وغيرة من إحداهن، الأكثر ولهاً به، سحرت له لأنه هجرها وصاحب إسبانية. كانت له رِجلٌ ثالثة كما يقال. استمالته تلك العاشقة المغربية فبات عندها وفي الصباح خرج من عندها فاقداً عقله.

المشهد بين أحمد والشريف المجذوب لا يدوم أكثر من ثوان. لا أحد يعلم ما يقوله أحدهما للآخر. أحمد وحده يبتسم. المجذوب نسي الابتسام منذ أن جُنَّ. قيل إنهما كانا صديقين في الطفولة.

مرة واحدة فقط رأوا أحمد يعاتب عائشة المجذوبة لأنها عرّت أسفلها لتردّ على شخص أغضبها مزاحه معها لاعنة أصله وفصله. هي أيضاً يتعاطف معها.

أخوه خليل له أيضاً غرائب أطواره وإن تسامت أكثر من عزلة أخيه أحمد. إنه رسام نابغة، لكنه آثر أن يغمر نفسه في المجهول. ربما بسبب تلك الصدمة. لقد عرض في أواخر

الستينيات لأول مرة. موضوع متشابه: هياكل عظمية حيّة وأشباح أشخاص ينتظرون من يدفنهم. مصلوبون ومشنوقون ومن فقدوا ملامحهم الإنسانية. في اليوم التالي صودرت كل اللوحات. من ذلك اليوم لم يعد خليل يرسم الإنسان إنما ما يرمز إلى وجود الإنسان. لا ينقّح رسومه، لا يوقّعها(١٨) ولا يبيعها رغم أن دخله من مهنة التعليم لا يكاد يكفيه. لوحاته يهديها إلى بعض أصدقائه، لكن عليك أن تطلبها أو أن تُوَسِّط من يطلبها لك منه لأنه لن يهديها لك تلقائياً.

لقد استاء منه الذين أرادوا أن يشتروا لوحاته ولم يرد هو أن يبيعها. أقيم له معرض في سويسرا فامتنع عن البيع كعادته وامتنع أيضاً عن الكلام لشرح هدف فنه فعمّ أعظم استياء واستغراب، لكن بعضهم تَفهّمه وأكبره. غير أنه لم يَسْلَم من بعض النقد المرح لشخصه الدونكيخوطي وليس لفنّه الرفيع.

سألته مرة:

ـ ما مصير فنك؟

ـ الاندثار. لا يهمني مصيره.

يستعمل في معظم رسومه مواد هشّة مثل التراب والنيلة ومواد أخرى قابلة للتلاشي.

---

(١٨) مثل الرسام الفرنسي قسطنطين غيس Constantin Guys (١٨٠٢ ـ ١٨٩٢) العصابي الذي لم يكن يرغب في توقيع لوحاته، وكان أيضاً يمزق أو يحرق كل لوحة رسمها في بداياته. كان صديقاً لبودلير الذي أطرى فنه.

عرفت خليل في أواخر الستينيات. رأيت بعض لوحاته، لكنني لم أطلب منه إحداها ولم أُوَسِّط حتى الآن أحداً (. . . ٢٠٠٠ . . .) لأحصل عليها. اللوحة الوحيدة التي أهدانيها كانت لرسام آخر. لوحة لم أر أتفه منها: تمثّل راقصة شرقية مستلقية على تخت. كانت بدون إطار فثبتها على الجدار بالمسامير. ظلت عندي بضعة أيام. وذات ليلة طويتها ورميتها من شرفة شقتي إلى الشارع.

نتقابل صدفة على مراحل متباعدة في طنجة أو في أصيلة. كلانا لا يبحث عن الآخر. لا يستطيب أن يشرب وحده. إذا عرضت عليه الشراب فإنه لا يرفض، في حانة أو في منزلك، لكن شرطه هو أن يدفع كل واحد ثمن ما يشربه. لا أعرف كيف يستدرجه المهدي ليدفع خليل أكثر منه كما قيل لي. هذا السحر الماكر، الماهر (لا أنكر أني أيضاً كنت ضحيته مثل خليل أكثر من مرة لكنني صرت أعرف حيله فأنتقم منه بطريقتي المستحبة) لا أعرف سرّ غواية المهدي رغم أنّ لي إغواءات شطارية ماكرة والمغفلون شاهدون على ما أقوله.

قال لي خليل يوماً: أحتقر الإنسان الذي يبالغ في أناقته. أحتقر الإنسان البدين الذي يفرط في أكله. ومن حسن حظي أني لست مثل هذا أو ذاك. أما خليل فيبدو لي أنه طيف. ليس من هذا العالم.

كيد النساء وأباطيل أخرى

في مستشفى مايوركا، علمت أن صاحب حانة غرناطة قد استغنى عن عمل فاطي لأنّ الأرباح تناقصت كثيراً بسبب الأزمة الاقتصادية التي أقلقت حتى أباطرة التهريب الدولي في طنجة، وهددت الساقطين في الانتخابات الذين راهنوا على نجاحهم فيها بجزء كبير من ثروتهم الفاحشة فأصيب بعضهم بالشلل الجزئي، وبعضهم باضطرابات القلب، وانهيارات عصبية، وأفلست التجار الصغار فأصيبوا هم أيضاً بعلل على قدر ما خسروا كالأرق وأعراض سوء التغذية واضطرابات معوية. كما أفاضت بواليع البؤس على الأحياء الشعبية ولم تنج شوارع المدينة المركزية من الرائحة الكريهة التي تسرّبت إليها والرعب والجريمة المتفاقمين. لكن غُرَماء فاطي من النساء والرجال أشاعوا أن السبب الحقيقي في إفلاس حانة غرناطة هو خلل في صندوق الحسابات تسرّبت منه اختلاسات. فقد صار لفاطي علانية ـ ولأول مرة ـ عشيق وسيم يعيش على حسابها. يتظاهر بأنه حاميها بينما هو الذي في حاجة إلى من يحميه من تهديد اللوطيين العريقين المفلسين الخطرين، وكذلك كيف له أن يصدّ عنه تهافت الذين يوقظ جمالُه

فيهم نزعتهم اللوطية الدفينة وعطاؤهم جدّ وفير لمعشوق مثله عاطل وعاشق متلاف.

الحانة بدأت فيها أشغال لتحويلها إلى قاعة شاي فخمة على غرار القاعات المتنافسة التي تنبثق الواحدة تلو الأخرى مثل الفطر في قاعدة كل عمارة جديدة. أحياناً تُدَشِّن قاعة الشاي الجديدة فتح بابها أو بابيها وتظل العمارة الجاهزة مقفلة شهوراً أو سنوات وقد لا يسكنها أحد إلى أجل غير مُسَمّى لأنه ما بُنِيَتْ إلاّ لتبييض أموال أصحابها كما يقال عنها.

ـ يريدون أن يجعلوا من المدينة باريس المغرب وهي تتخبط لتخرج من بلاّعة بؤسها التي تُنْتِنُها وتُغرقها.

ـ لكن كل القاعات تمتلئ كل مساء، وفي أيام العطل لا تكاد تجد مكانك فيها صباحاً أو مساء.

الاستغناء عن فاطي هناك من يعتبره إجراء ملفقاً للتمويه لأنّ تحولاً جديداً وقع في حياتيهما: هي وصاحب الحانة. لقد رأوهما مراراً يتحدثان بحميمية ساعات طويلة في سيارة صاحب الحانة خارج المدينة. وقيل إنها كانت محظيته في الخفاء منذ أن كانت مُسَيِّرة الحانة. فيما بعد، انكشف أنّ صاحب الحانة قد أبدى توبته الخالصة؛ لأنه حاقت به مصائب متوالية: إبنه مات في حادث سيارة، وابنته اختفت منذ شهور وهو كادت أن تقضي عليه عُصبة من المراهقين المدمنين على شمّ «السيلوسيون» المسلّحين بالسكاكين والمطاوي وشفرات الحلاقة. صار اليوم من محسني المدينة: فهو يساهم في بناء المساجد وتنشيط الاحتفالات

الوطنية. إنّ تأثيره واضح على حجاب فاطي؛ فقد غدت هي أيضاً تعيش بعقلية هذا حرام وهذا حلال، وتريد أن تؤثر على الأخريات فأصبح للرجل أَجرُ توبتين: توبته وتوبتها. وتكفيراً عن حياتها، منذ أن جاءت بها للاّ شفيقة من العرائش إلى يوم توبتها، قطعت دابر صلتها بكل العاهرات مثلها اللواتي عَرَفْتهن. هل تتنكر هكذا أخت لأخواتها كما قالت واحدة لأخرى؟ إنّ بعض الذين كانوا من زبائنها في حانة غرناطة يشتمونها اليوم ويبصقون عليها لأنها لا تردّ على تحياتهم.

ذات صباح صيفي التقت اثنتين منهن ودعتهما إلى التوبة الخالصة واعتناق مبدأ الحجاب في هذا الزمن الفاحش. الفتاتان خرجتا من أحد فنادق العابرين ولم تكونا قد نامتا جيداً مع زبونين. إنهما ذاهبتان إلى إحدى الحانات الصباحية، التي تستقبل الذين سهروا ولم يناموا بعد، لتسكين تهيّجهما ببعض البيرات الباردة في ذلك النهار الذي بدأ حرّه باكراً. تجاوزتاها ناظرتين إليها كما لو أنهما تنظران إلى بهلولة، لكن فاطي بصقت شتيمة لاسعة ومضت تهمهم فلحقتا بها بشراسة وانهالتا عليها باللكم والخمش والركل حتى أدمتاها. منديل رأسها تطاير على الأرض وشعرها منتوف وجلبابها تمزّق من عنقه إلى صدره فراحت تستغيث بصرخاتها المسترحمة مثل دجاجة تقوقئ. لم يسبق لها أن تعاركت جسدياً مثل اليوم. واحدة كانت كافية لها كما قال أحدهم. لكن كل واحدة منهما تريد أن يكون لها حقّها في «مَلْخِها»[1] وسلخها وأخذ ثأرها من القحبة الكبيرة المرتدّة كما

(١) مَلَخ الشيء: جذبه قبضاً أو عضاً.

تنعتها الشرستان وغيرهما كثيرات. إنه واضح أنّ لهما تصفية حساب معها يوم كانت هي الآمرة في حانة غرناطة بأن تدخل هذه ولا تدخل تلك. السيارات تسير وضجيجها يعلو زاعقاً أكثر فأكثر لأنّ بعضهم يتمهّل في سيره حتّى يرى ماذا يحدث. جُمعُ الرجال يتلذذ بالمشهد وهي تحاول أن تحتمي بهذا أو ذاك والنساء يستنكرن المعركة غير المتكافئة ويتوسلن إلى الرجال إنهاءها. قال بعضهم: تَقاتُلٌ سافل. صرخت امرأة: كلكم تتفرجون، كلكم تريدون هذا. قال بعضهم لبعض وهم يتفرقون ضاحكين بعد أن تدخلوا وفرقوهما: إنها احسايف القحاب(٢)، لكن اثنتين ضدّ واحدة غير معقول.

أشاعت عني فاطي الودود، الكريمة، لأسباب سأظل أجهلها حتى مماتي، بأني أبوها المغرم بها ذو النزعة السِّفاحية. وحين استنكرت هي وتشبثتُ أنا بها وهددتني بالإبلاغ عني إلى السلطات هربتُ لاجئاً إلى مستشفى الأمراض العصبية في تطوان لأحمي نفسي مدعياً الجنون. ومنعاً لتفاقم الفضيحة وحفظاً لكرامة أسرتها العزيزة عليها، التي ورثتها من للاّ شفيقة، تزوجتْ في الصيف الماضي من عامل مهاجر يعيش في الدانمارك تاب هو أيضاً بعدها إلى الله على يد صاحب الحانة الذي عاش معه طفولة حميمة مُريبة. ومن بين شروط زواجه منها قَطعُ صلتها تماماً بللاّ شفيقة، بعدما عرف أنها تدخن وتشرب ولا تستطيع أن تتوب إلى الله، وأنّ ليلى وياسمينة ما هما بأختيها حتى تتحسر عليهما، ثمّ إنهما تعيشان مع للاّ شفيقة. وحين علمت للاّ شفيقة

(٢) من الحسافة والحسيفة: العداوة والغيظ.

بمصيرها لعنت فاطي، وزوجها المزعوم، ولعنت اليوم الذي قُدّرَ لها فيه أن تربيَ أطفالاً ملاعين لم تلدهم، وحمدت الله على أنها لم تُطفِل أحداً منهم وإلاّ لكانت قد لعنت نفسها وجُنّت بسببهم.

العـائـــدة

قد نلتقي.

أن تعشق من تحبّه

ربما لحظة، ربما يوماً،

ربما جزءاً من عمر.

لا أحد شاهد على

ما بدأ وعلى ما انتهى.

أذكر أنّ طريقنا

كان واحداً،

لكن المسافة فَرّقتنا:

أنا بعيدُها وأنت قريبُها.

قد نلتقي أو لا نلتقي.

كان لي أن أراك غداً

لكي نسافر أو نبقى،

لكني تركت بعضاً

من ثيابي عند جدّتي.

وَعَدْتُها بشيء لا تحبّه

إلاّ الجدّات.

سَلْ جدّتك؛ فكل الجدات

يتشابهن فيما يحببن.

من عادتي أن أتناول، في قاعة شاي مدام بورط، كأسين أو ثلاثاً من كوكتيل ألكسندرا كلّما أسعفني جيبي. سالڤادور، البار ـ مان، ماهر، بخبرته العتيقة، في إعداده. ولا يقلّ سحره في إعداد دراي مارتيني Dry Martini ومانهاتن Manhattan اللذين أستلذهما في الصيف. ويقال إنّ ألكس وُوإڤلين Aelx Wugh Evelyn(٣) أفاده كثيراً في إعداد الكوكتيلات.

عجباً! إنها هي. في منتهى أناقتها. وجهها المربّع اكتنازه قليلاً يناسب عمرها المقترب من الأربعين. أكثر من خمسة عشر عاماً مضت. البارز فيها الآن هي أنها ذهبت شقراء وعادت أكثر شقرة كما يُخَيّل لي. شبه قَمحية اللون ذهبت والآن هي شبه بيضاء. لا ينقصها إلاّ جمال المسلولات بوجناتهنّ الموردة. نَدَبُ خدّها الأيسر اختفى. عملية تجميل راقية. عيناها البوميتان ما

---

(٣) روائيّ إنجليزي كان يتردد على مدام بورط. له كتاب عن الكحول وأوقات تناوله. عاش فترة في طنجة.

زالتا حريصتين على رؤية كلّ شيء في وقت واحد. جالسة قُبالةَ مدخل الصالون. دعتني نظرتها المركّزة وطيف ابتسامتها المرتابة إلى الاقتراب منها. أهو سيقبل الجلوس معي؟ قامت وتعانقنا.

ـ قيل لي إنّ هذا هو مكانك المفضل.

ـ أحياناً. إنّ أيام حانة غرناطة قد ذهبت معك.

ابتسمتْ.

ـ هل صدقتَ ما قيل لك بأني قلته عنك؟

ـ لقد مضى وقت كاف لأنساه.

ـ كل ما قيل عنّا إشاعة، وأنت تعرف أفضل مني عاهرات طنجة. إنّ حسدهنّ قاتل ومنافستهنّ وحشية.

يحقّ لها الآن أن تنزّه ماضيها. لقد ضَمنت مستقبلها. لكأنها لم تكن واحدة منهنّ. لكأنّ فمها الأسفل لم يرضع نفس الحليب. أوقفني شكري الآخر الذي يراقبني في مثل هذه الحالات: أجئتَ للمشاكسة أم جئتَ لإحياء الصداقة؟

ـ فاطي.

ـ نعم.

ـ إنّ ما قيل عنّا تُرَّهات ومُزاح مُغرض. أنت الآن لك حياتك في جلدك الجديد، وأنا مثلك لي حياتي. هؤلاء الذين قالوا عنّا ما قالوا ربما هم الآن منشغلون بآخرين أو هم مقعدون في منازلهم أو هاجروا أو ماتوا.

ـ قيل لي إنك كتبت كتباً.

ـ كتبت بعض الكتب بعد أن تخلصت من لعنة العمل الرسمي.

ـ أنت، إذاً، لم تكن تحبّ عملك.

ـ وأنت هل كنت تحبين عملك عندما كنت في حانة غرناطة؟

ـ مهنتي كانت تختلف: بنت الزّنا، لقيطة، لا أصل لها. هذا ما كانوا ينعتونني به.

ـ وما زال هذا يؤلمك؟

ـ كان لي الوقت الكافي لأنساه كما قلت أنت.

ـ الأمر سواء. اللعنات موجودة في كل عمل. حتى تأليف الكتب لا يسلم من اللعنات والمنع والاعتداء إلى حدّ المطاردة والسجن والقتل. ربما تلقيت من الشتائم أكثر مما عانيت منه أنت. لقد بصق عليّ بعضهم في الشارع، في الحانات، في المؤسسات الرسمية وغير الرسمية وفي كل مكان لأنّي كاتب ملعون.

حضرت الساقية. تشرب بلادي ميري Bloody Mary فطلبته لأنني أستسيغ مذاقه المُتَوْبَل.

ـ كيف مات زوجك؟

ـ في حادث سيارة. كان يعمل في مخبزة وأنا في كافيتيريا.

عدت به منذ شهور في الطائرة لدفنه قرب أهله.

ـ قيل لي ذلك.

ـ كان عليّ أن أعود إلى هورسنس Horsenes لتسوية أوراق التأمين ومعاشي من عملي وعمله.

تسترخي. خَفَّتْ عصبية تدخينها. ربما اعتقدت أني سأهاجمها. ترشف من كأسها مُتَلَمِّظَة[٤] رشفاتها عابثة بمفتاح سيارتها. لا شكّ أنَّ نوعاً جديداً من المضايقة ينتظرها مع الذين عرفوها في حانة غرناطة والذين عرفوها في الحجاب. طنجة اليوم أسوأ من يوم أن غادَرَتْها. ما أظن أنها قادرة على حماية نفسها فيها. إنّ الثعبان الذي كان راقداً استيقظ.

ـ وصلتُ منذ أيام. أقيم في فندق بريستول. أتمنى أن أعثر قريباً على شقّة للكراء وربما للشراء. لا أطيق الإقامة مع أسرة زوجي: كم تركوا لك من أجرته؟ كم تُقدِّرين أنك ستحصلين عليه من تأمين الحادث؟ وحسابكما البنكي كم فيه؟ لا شكّ أنه مَوْفور. إنّ المرحوم لم يكن مبذراً. لم يكن يشرب أو يدخن. لم تكن له أية «بَلِيّة»[٥]. كان تقيّاً سواء هنا أو في بلاد النصارى. أليس كذلك؟ إنها أكثر من خمسة عشر عاماً وأنتما تشتغلان. لولاه لمتنا جوعاً يا ابنتي. كان، رحمه الله، يساعدنا كل شهر أكثر من اللازم. إننا سنعول عليك بعده يا ابنتي. أنت ترين كيف هي حالتنا. وأسئلة أخرى عن مشاريعي بعد عودتي. إنّ أمه هي التي تولّت معي التحقيق نيابة عن زوجها وأولادها

(٤) لَمَظَ: أخرج لسانه بعد الأكل أو الشرب فمسح به شفتيه.

(٥) المقصود هنا هو الإدمان على شيء.

الخمسة. ثلاثة منهم عاطلون: ذكران وبنت فُسِخَت خطوبتها. والآخران: واحد يتاجر في الخُرْدَة والآخر صيّاد سمك. لو بقيتُ معهم أكثر من ثلاثة أيام لسمّموني. إنهم يعرفون أنّ لا أسرة لي بعد وفاة للاّ شفيقة. يريدون أن أنضمّ إلى طابورهم؛ أن أصبح واحدة منهم لكي يرثوا حياتي كلّها. وربما صرت عشيقة أحد ولديها العاطلين، الحشاشين، أو المُتَزَوِجَيْنْ أو زوجة واحد من أقربائهم الذين توافدوا على رؤيتي من بعيد وقريب. إنها أرملة الأب أو أرملة العمّ، العائدة من بلد غنيّ.

ـ وليلى وياسمينة أينهما الآن؟

زَفَرت.

ـ كانتا معاً في ماربيا Marbella. انقطعت عني أخبارهما منذ سنوات. أعتقد أنهما لا تريدان أن أعرف مصيرهما. لقد أدركت من رسائلهما أنني تخليت عن الأسرة عندما تزوجت. كنت أساعدهنّ بما كان يسمح لي به زوجي. ربما كنّ ثلاثتهنّ على حقّ. زواجي كان طموحاً زائفاً. حينما تزوجت لم تكن لي بصيرة لأنني كنت أجتاز فترة ضعف وخِذلان.

ـ التقيت للاّ شفيقة مرة في السوق الكبير ومرة في الكورنيش. كانت تلهث وهي تتكلم. شكت كثيراً حالها الذي آلت إليه من مرض وعوَز ثم لم أعد أعرف عنها شيئاً. كانت حزينة في المرتين.

دمعت عيناها ووقفت. تحاشيت أن أذكر كيف تنكرن لها هنّ الثلاث وأهملن مساعدتها حتى ماتت وحيدة مغمورة.

ـ زرني في فندقي إذا شئت. هناك أيضاً قاعة وبار، أو نتقابل غداً هنا. أنا ذاهبة للعشاء في مطعم الدورادو Eldorado. تعال معي أو الحق بي إذا كانت عندك رغبة.

ـ ليس اليوم. ربما غداً.

أذكر يوم عرضت عليها الزواج منها فرفضت: «أنا أصرف على أسرتنا أكثر من أجرتك. إنك ستتزوج أسرة أفرادها أربعة وأنت الخامس. لا بدّ أن تنهي ليلى وياسمينة دراستهما». لكن زواجها خذل صمودها. أمّا أنا فقد كنت أمرّ بمرحلة نزوات. مرة أخرى مرضت ففكرت في الزواج. أدركت فيما بعد أني كنت أبحث عن ممرضة وليس عن زوجة.

جالسة في نفس المكان. متوترة أكثر من البارحة. طلبتُ نفس شرابها: بلادي ميري Bloody Mary لألطف به برد شباط/ فبراير الذي حملته معي من الشارع متجولاً أكثر من ساعة. ملامحها تنمّ عن أنها لم تنم جيداً. أفرغتُ ما تبقّى في كأسها وطلبتُ أُخرى عندما وضعت لي النادلة كأسي. سحقت سيجارتها في المنفضة وأشعلت أُخرى. تسحب الدخان عميقاً ولا تمجّ منه إلاّ القليل. شحوبها يطغى على ماكياجها. إنها مُغتاظة.

ـ لقد بدأ ما لم أكن أتوقعه. أمس، بعد خروجي من المَرْأب، الذي أركن فيه سيارتي، القريب من الفندق، وجدت هناك من ينتظرني قربه. صافحني بهدوء وقبّلني على خديّ. فعل اللعين ذلك حتى لا يثير الشبهات. لم يقبلني قط من قبل.

ـ كم كانت الساعة؟

ـ حوالي العاشرة ليلاً. مدّ يده إلى حقيبتي ونشلها بعنف مكتوم وهو يبتسم. شخص كان يقترب ليمرّ قدامنا. أعاد لي الحقيبة. حذار من أن يخذلك صمتك. صرخة واحدة ولن تفرحي بحياتك بعد الآن. مرّ الرجل فاستعاد الحقيبة آخذاً كلّ محتواها من نقود: أكثر من ألف درهم. كان فيها دفتر الشيكات. تمنيت لو أنه أرغمني على توقيع شيك بأيّ مبلغ. تلك كانت فرصتي لو أنه أرغمني، لكنه لم يكن بليداً إلى هذا الحدّ. تريدين أن تعيشي وحدك على حساب ما تركه لنا جميعاً أخونا المرحوم.

أعاد لي الحقيبة ناظراً إلى خاتمي الذهبي وسلسلة عنقي وقرطيّ. عودي إلى توبتك التي تزوجك من أجلها أخي. تزوجي حتى لا تعودي إلى حياتك القديمة التي أنقذك منها أخي المرحوم. أنا أعرف الأماكن النهارية والليلية التي ترتادينها. عائلتنا كلها على علم بما تفعلين فيها. كوني عاقلة. سيكون حسابنا معك طويلاً وقاسياً لا رحمة فيه إذا لم تتوبي إلى الله ولم تساعدينا.

قلت له بنفس الهدوء الزائف الذي كلّمني به: شكراً. هل يمكنني الآن أن أنصرف؟

ليلتك سعيدة. فكري جيداً فيما قلته لك. نحن في خدمتك إذا احتجت إلينا.

غادَرْتُه وفكرتُ في أنّ طنجة أصبحت اليوم توحي بالانتحار لمن لا يستطيع مغادرتها. لقد ضاع فيها كل ما هو

أسطوري جميل. لا يقين لها بأنّ ما قبضت عليه هو حقيقة ما كانت تريده.

لم أجد ما أقوله لها فأشعلتُ سيجارة وطلبتُ كأسين أُخريين. كدت أن أقول لها بأنّ البلادي ميري لذيذ ولكنه يفاجئ بالسكر.

ـ ما رأيك؟ أنا حائرة. مُهانة. لن أستطيع العيش هنا على هذه الشاكلة. ندمت على عودتي بعد أن سويتُ وضعيتي في هورسنس. العيش هناك أيضاً صعب. يختلف كثيراً عمّا حملت معي من عادات وأفكار. ثم إنّ الطقس الصقيعي يتسرب حتى العظام.

ـ إذهبي إلى مدينة أُخرى: مراكش، مثلاً. العيش فيها مُغرٍ ومريح. ما زالت تحتفظ بالكثير من أصالتها وأهلها مرحون.

ـ إنهم سيتشممونني أينما ذهبتُ إذا بقيت في المغرب. إنّ حاسّة شمّهم ستُدرِكني أينما كنتُ إلاّ إذا عبرتُ البوغاز. هو وحده الذي يقدر أن يضلل شامّتهم ويُبْطِلها. قدَري هو أن أعيش في الخارج. أفكر في جنوب إسبانيا. لم أزر بعض مدنه إلاّ مروراً حينما كنّا نعود في الصيف لقضاء العطلة مع أهله. سمعت الكثير عن مباهج العيش في إسبانيا بعد موت فرانكو.

اقترب منّا طفل يحاول أن يتماسك في مشيه. نظر إليها ثم إليَّ ثم إليها. لامستْ شعره ببسمة متحسرة. نظر إليّ كأنه يوصيني بها إيصاءً استعطافياً. عاد إلى أمه الجالسة وحيدة تدخن باسترخاء. حيتنا خارجة وحييناها والطفل يودّعنا بنظرة حالمة. لم

يتعلم بعد كيف يبتسم للغرباء. لا أعرف إنْ كان يدرك الفرق بين الرجل والمرأة!

طلبت كأسين أُخريين دون استشارتها. لديها استعداد لتشرب. ربما لتخفف من صدمة ما حدث لها أمس. أشعلتْ سيجارة. إنها لم تفقد الكثير من صلابة شخصيتها التي كانت لها في حانة غرناطة: تعرف كيف تصلح ما ندمت عليه. تعرف كيف تبدأ من جديد قبل أن تنهار.

ـ هل شربت مرة في هورسنس؟

ـ في كلّ عيد ميلاد صديقتي شاستين. معها أيضاً في رأس كل سنة. عاشت في طنجة فترة في نهاية السبعينيات. كانت هيپيّة. هي الوحيدة التي كان زوجي يسمح لي بالمبيت عندها. كان معجباً بها. كنا نعرف أسرتها. أمّا السجائر فكنت أدخنها أثناء العمل. أخوها أيضاً لم أحرمه من الإعجاب بي. لم يعد لدينا، أنا وزوجي، الكثير مما نتحدث عنه. لقد استهلكنا ذكريات الوطن ولم نتأقلم مع مجتمع هورسنس. عقلية أُخرى. أنا كان عندي استعداد للتأقلم ولكنه لم يكن يسمح لي بالكلام إلاّ مع بعض جيراننا الذين أُقَضّي بعضاً من وقتي في عطلة نهاية الأسبوع في صحبتهم أو ألاعب أطفالهم. لم ننجب أطفالاً فكانوا مثل أطفالنا. كان هو أيضاً جدّ ودود معهم.

في المساء، كان يتهجّأ كتبه الدينية وأنا أقرأ الكتب العربية التي أحملها معي من هنا في كل عطلة أو أشاهد التلڤزيون.

بدأت تتلعثم قليلاً. تقول كلمة ثم تستدركها بأُخرى.

تتثاقل كلماتها ممزوجة بالانتشاء والضحكات الخفيفة. تأسّيها الآن غلاّب على أساها الأعمق. لقد نضجتْ. مسترخية إلى حدّ التّدَمُّع فرَحاً. أرادت أن تطلب كأسين أُخريين.

ـ في منزلي أحسن. عندي ما يُشْرَب. ما زلت أسكن في نفس الحيّ ونفس العش اللقلقي(٦).

ـ بعد هذين سنذهب.

يحدث لي نفس العناد مع الشراب عندما أكون في نفس حالتها المهمومة. اقترحت عليها أن تترك سيارتها مركونة قدام مدام بورط لأنّ المكان أكثر أمناً من قدام عمارتي. تترنح قليلاً. تأبّطت ذراعي. مَشْيُنا لا يوحي بالشبهات، لكن الذين يعرفونني كانت نظراتهم فضولية مارين قدامنا أو بعيداً منّا.

ـ ليس عندي إلاّ النبيذ.

ـ هات أيّ شيء.

ما أن أملأ لها كأسها حتى تفرغها شَرْبة واحدة. مستسلمة تماماً، متلذذة بعريها تحت الملاءة التي تدثرت بها. ذهبت مرتين إلى الحمام بالملاءة فبدت مثل تمثال يمشي. في المرّة الثالثة كان صوت قيئها مثل بقرة طُرِحَت أرضاً للذبح. انتقلتُ إلى غرفة النوم. بدت متعالية كأنّها سيدة الأبواب المقفلة قبل أن تُولَد جدَّتُها التي ماتت منذ مائة عام. إنها تُغالِب لتخفي وعكتها. اندسّت في الفراش وتقرفصت راعشة فأرعشتني معها. فاحت منها رائحة عطريَ.

(٦) نسبة إلى اللقلق: المقصود هنا هو الطابق الأخير في العمارة.

يداها مثلجتان. لم يغزها بعد الترهل. لا أعتقد أنّ زوجها اكتشف هذه المناطق من جغرافية جسدها: الوَرِكان، الإليتان، الساقان، شحمة الأذن ومَنبتُ العمود الفقري. حتّى الحَلَمتان لا أظنّ أنه لمسهما ومن المستغرَب أن يكون قد مصّهما. كلّها ما زالت محفوزة بالشهوانية السابتة(٧). كأنّها عذراء.

في الصباح، جاء دوري لأفرغ صفرائي. هذا البلادي ميري، هذا البلادي لا تُحمَد عُقباه عندما أُكثِر منه.

لم أرد أن أوقظك. حينما تستيقظ سأكون في الضفة الأُخرى. سأكتب لك. (قطتك المفزوعة).

راقَبها وهي تركن سيارتها قدام فندقها. راقبها نازلة من الفندق وخلفها خادم حاملاً حقيبتها الكبيرة. رأته يقترب ببطء مشيراً لها أن تنتظره. شَغَّلت السيارة. كان خادم الفندق قد وضع الحقيبة في الصندوق فدسّت له في يده ثمن خدمته وأقلعت بسرعة جنونية.

لقد وصل متأخراً. لا شكّ أنه دخل الميناء بصعوبة. تنظر إليه بسخرية مسندة مرفقيها على جنْب الباخرة. ظلّ هناك جامداً. قالت لنفسها جَهراً: الأوغاد! ثم ابتعدت.

رسالة من فاطي.

ماربيا Marbella.

أذكر ما قلته لي:

---

(٧) من السُّبات.

عندما تزورين مدينة
فلا تسألي عن أحد.
ستقابلين من تحبّين.
قد تعرفينه أو لا تعرفينه.
كذلك كان.
إنها رشيدة.
صاحب المطعم أرمل.
له ولدان ولها ولدان.
صارت أمّاً لأربعة
وبنتاً لأب.
هو في عمر أبيها.
هي تعمل في الصباح
وهو يعمل في المساء.
زوج وأولاد ومطعم.
ما أسعد غربتها!
أتمنّى حظي.
بئس العودة.

موت سمكة هيپّية

ربما هي سعادتك.

أن تسمع أغنيتك،

أوقفها إذا أحزنتك.

أن تستيقظ صباحاً

والسماء مشرقة،

عد إلى فراشك

إذا كان حلمك أقوى.

أن تسمع الهاتف

وأنت عارف من يكلمك،

لا تجبه إذا كان مزاجه لا يلائمك.

أن تلغي سفرك، إذا كان كلبك

يحتضر،

من كان يملك كلباً مثل كلبك؟
أن تتخلى عن نهاية الجنازة
وأنت تسمع نكتة،
أليس من حقك أن تركب حماراً؟
أن تسمع قهقهات مجنونة وتصمد،
أليس من حقك أن تبقى أو تذهب؟
لا أحد يلومك في يومك،
إذا كنت خالقه.
ربما جنونك فيمن تقابله صباحاً
وجنونه فيمن يقابلك مساء.
أن تسمع أمّ بنتها البكماء تغني،
حتى ولو كانت بكماء؟
نعم،
فلا بدّ للغناء من أحد.

يجيء فريد في يوم من أيام آخر الشهر ومعه نصيبه من حوالته الذي يخصه لنفسه دون أسرته. يبقى حتى المساء ثم يعود إلى العرائش. قد يبيت إذا لم يبدد كل نقوده في استضافة رواد الحانات وبغاياها للشراب معه. قد لا يعرف أحداً منهم. في حانة نيجريسكو Negresco، غالباً ما يجد من يقبل الشراب معه متحملاً حديثه الرتيب عن أحوال أسرته الشاكي منها دائماً. لقد

تعود الرواد الدائمون ـ الذين أجلسته معهم ـ على مجيئه مرة في الشهر. إذا يئس من العثور على من يؤانسه منهم أو غيرهم من العابرين فإنه يمارس حواره الداخلي مع سمكته الصغيرة السوداء محدِّقاً فيها بانبهار طفولي. سماها نادية الهيبية.

ـ فريد.

ـ نعم.

ـ لماذا هيبية؟

ـ ألا ترى سوالفها وشعيراتها الكثيفة حول عنقها وخياشيمها!

ـ ولماذا أسميتها نادية.

نظر إليّ صامتاً مبتسماً.

لم يتغير كثيراً عمّا عرفته عليه في أواسط الخمسينيات. متردد، متشكك، غير واثق من نفسه، إتكالي ولا يستطيع أن يؤذي ذبابة ما عدا مشاجراته الدائمة مع زوجته يامنة التي تشاكسه من أجل أتفه الأشياء وتشتمه بلهجتها «الريفية» التي لا يفهمها ولكنه يدرك أنها تخزيه وتلعنه أمام أولادهما والجيران. لقد علمتها لولدها البِكر ولكنه لا يجرؤ أن يترجم لأبيه كلمة واحدة عن حقيقة ما تقوله عنه أمّه.

عندما ألححتُ عليه في الزواج من يامنة ليتخلص من إدمانه على الاستمناء الذي أنهك جسده النحيل ووَشْوَش عقله ظننت أنه سينجب منها ولدين أو ثلاثة ليطمئنها ويرتاح، لكن أرنبته فَرَّختْ له خمسة عشر ذكراً وأنثى والسادس عشر مات بعد

حوالي ساعة من ولادته. وحينما سألته عن هذا الجنون لامها وبَرّأ نفسه: «هي التي رفضت أيَّ منع للحمل».

حتى الآن لا أعتبر فريد ذا عقل سويّ. إنه متذبذب بين الذكاء والغباء. ولكي يخفف من وسواسه القَهْري الذي يُوَتّره يُفرغ ما يَتَبَقّى من البيرة في القنينة ضاغطاً عليها بيديه ثم يضرب قاعها بيده حتى تسقط آخر نقطة. يثير قهقهات أو نظرات آسفة حسب نوع الرواد، لكن هذا لا يحدث له عندما يكون معي في نيجريسكو Negresco. لا أنصحه بأن يكفّ عن ممارسة فعله القهري، لكنني أسكت ولا أبالي بما يقوله فيفهم انزعاجي ويتخلّ عن وسواسه خَجِلاً عاجزاً عن الاعتذار. نظل واجمين ثم يستلطف اللحظة المُحْرِجَة ويستدرجني بهدوء إلى الإنصات لما يقوله سواء مخطئاً كنتُ أو على صواب في تعقيبي. إنه يؤمن بآرائي دون أيّ تبصّر منه فيما أقوله. لا أحبّ منه هذا الإعجاب المفرط في عماه. إنه يقززني، لكن كيف أتخلص من صداقتي له؟

إذا بقيت معه نقود كافية فإنه يبيت في أحد الفنادق الرخيصة.. في الليل يتردد على الحانات الداعرة. يستضيف العاهرات إلى الكحول، لكنهنّ لا يشربن إلاّ رائحته. لا يهمه أن يكون حقيقياً ما تشربه نديمته إنما أن تعرف كيف تسلّيه بحكايات. إذا لم تعرف كيف تحكيها فإنه يبحث عن أُخرى. وكلّما تأسّى لحكاية كان حظّ سامرته أوفر في الشراب وربما بعض الأوراق المالية يدسّها في جيبها. هو أيضاً يتعزّى وينشرح إذا عرفت مُؤانِستُه كيف تصغي إليه وتتأسّى وتشهق. هو عارف أنه مخدوع، لكنه يتغافل حتى لا تفسد المُسامَرة. لا يصحب معه

أية منهنّ إلى فندق العابرين مهما كان جمالها وإغراؤها. يعاملهن مثل أخواته كما يعامل ماسحي الأحذية إخوة له. يخيّل لي أنه ليس واثقاً من أن أحداً يحبه إلاّ هؤلاء. ربما هو نوع من المازوخية الإنسانية يتملكه ويشدّه إلى عالمهم.

كنت أفطر عندما رَنّ الجرس. إنه هو. ما أن جلس حتى بادرني من غير تمهيد:

ـ خلاص.

ـ ماذا؟

ـ لقد انتقلت إلى طنجة. سأدَرّس في إحدى المدارس الابتدائية.

ـ أين؟

ـ في حيّ بني مكادة.

ـ لماذا هذا الانتقال؟

ـ الأولاد يكادون ينحازون كلهم إلى أمهم ضدي. آخر مرة تشاتمت معها كان أكبرهم حاضراً فنهض وشدّني من ياقة قميصي بعنف وهمّ بأن يضربني على وجهي لولا أنها ارتمت عليه وخلصته مني. سبّني وبصق عليّ وهددني بطردي نهائياً من المنزل.

ـ قد يحدث أفظع من هذا. لستَ الوحيد.

ـ أنت محظوظ.

ـ كيف؟

ـ لأنك لم تمسح خراء أحد حتى يهينك بالضرب أو الشتم. كل شيء انتهى. سأبتعد عنهم.

ـ إنهم طابور. سيتبعونك أينما شئت أن تذهب. العيش في طنجة أغلى من العرائش.

ـ سأدَبِّر أمري. فقط أرجو منك أن تسكنني معك ريثما أعثر على مسكن يناسب راتبي الشهري.

ها هو قد قالها أكبر من حماقاته المعهودة فيه. شربت كأسي الأولى بيدي الراعشة. أفرطت أمس في الشراب حتى حلمتني أبول فبلت في الفراش. في طفولتي كنت أستلذ مثل هذا البول الليلي وأنا بين النوم واليقظة. بعض من أولاده يشتغل وبعضهم عاطل يتحشش ويسكر.

ـ فريد.

ـ نعم.

ـ هل قرأتَ شيئاً عن عزلة الكتّاب؟

ـ نعم.

ـ وهل تؤمن بها؟

نظر إليَّ كمن لا يريد أن يجيب.

ـ نعم، لكني أعاهدك أني لن أزعجك في شيء. سأظلّ صامتاً حتى تُكلمني. لن تشعر بوجودي. ستكون لي أنا أيضاً عزلتي.

ـ ليس كما تفكر أنت. ستكون موجوداً حتى وإنْ كنت شبحاً لا يُرى. إذا كنت تريد أن نبقى صديقين ففتش لنفسك عن مسكن آخر غير مسكني.

ـ سأشعر بوحدة قاتلة إذا سكنت وحدي. هذا ما حدث لي عندما عينوني في إحدى قرى جبال الريف. لولا تقرير طبيب الأمراض العصبية الذي أعادني إلى العرائش لكنتُ جننت.

ـ فريد.

ـ نعم.

ـ أنا لا أعرف حتى كيف أنقذ نفسي.

ـ هل ستسمح لي بأن أزورك؟

ـ ممكن، لكن أحياناً لا أريد أن أعرف حتى من يدق بابي.

ستكون زيارته أيضاً محرجة. إذا دخل فكيف أقنعه بأني أريد أن أكون وحيداً أو أني سأنام، أو أستريح من الكلام وأتأمل، أو أكتب، أو أقرأ، أو أحلم، أو أستمع إلى موسيقى لا أريد أن يستمع إليها أحد معي. في الحانة أو المقهى أستطيع أن أتملص منه بِشَتّى الحِيَل. في منزلي سأكتفي بكتم حنقي في صمت أو هذَر. حساسيته حادّة ورهيبة. قد يخبط رأسه مع جدار إذا أُوذِي. وساوسه كثيرة وثابتة. لا شكّ أنه سيحملها معه إلى قبره. إذا كان في حانة أو مقهى وأراد أن يذهب إلى حيث يذهب الملك وحيداً كما يقول فإنه يشرب كل محتوى

كأسه. يخشى أن يُوضَع له في شرابه شيء يؤذيه. يفعل ذلك أيضاً في صحبتي.

ـ أحتّى أنا لا تثق فيّ؟

ـ المرء لا يعرف. في غيابي قد تخرج فجأة لتلحق بشخص تراه يمرّ في الشارع من خلال واجهة الحانة يهمك أن تكلمه فيحدث ما لا تراه أنت ولا أراه أنا. هناك كثير من المجانين في كل مكان يريدون أن يتسلوا والحاقدين كذلك لأنك تعيش أفضل منهم.

ـ لكن هنا ليست لك أية عداوة مع أحد؟

ـ لا يمكنك أن تعرف ما يخبئه لك أيُّ إنسان حتى وإن كنتَ لا تعرفه.

أعداني (من العَدْوَى) ببعض من وساوسه.

لم يدم تعيينه أكثر من ثلاثة أسابيع ثم أعادوه إلى العرائش بتقرير طبيب للأمراض العصبية. لم يزرني خلالها. لم نتقابل. رأيته مرة يسير نحو محطة السفر. كان في الرصيف الآخر. رآني أم لا! لم أفسّر عزوفه عن رؤيتي حتى في حانة نيجريسكو. له عُقَدُه ولي عُقَدي. كلانا له هواجسه وغرائبه. لست نادماً على شيء مما حدث بيننا.

في المرة الأخيرة التي جاء فيها من العرائش أبدى تأسفه لصاحب الحانة لأنني كنتُ مسافراً في ألمانيا. جلس قبالة حوض السمك كعادته عندما يكون وحيداً. لا يهتمّ بأيّ شيء آخر سوى سمكته السوداء نادية الهيبية. هناك سلحفاة صغيرة سمّاها

صوفي. الأسماك الأُخرى في الحوض لم تكن تهمه رغم غريب ألوانها. يشرب بيراته ضاغطاً على كلّ قنينة حتى آخر قطرة.

اعتاد الرواد الدائمون على حركاته غير الإرادية فلم يعد أحد منهم يسخر منه. كان الإشفاق عليه أقوى من الضحك. فجأة رأى فريد ما لا يسرّه. إنّ نادية الهيپية لم تعد تتحرك زعانفها. رآها تطفو ولا تغوص. سكنت. جحظت عيناه. بدأ يتوتر ويهتزّ. صرخ: غير ممكن، نادية مريضة، نادية تموت. انتبه كلّ الحاضرين إلى هَذَرِه. تهامسوا: شيء ما بالغ الاضطراب يحدث له اليوم.

في الركن جَنْبَ مدخل المطبخ اعتاد أن يجلس هناك الدكتور أنور الاختصاصي في الأمراض الصدرية قارئاً جرائده راشفاً كأسه البَسْباسية. اقترب من فريد:

ـ ماذا يحدث؟

كان يعرفه كما يعرف كل الرواد الدائمين.

ـ نادية تموت.

ـ نادية!

ـ نعم، سمكتي نادية تموت. أنظر إليها. إنها تطفو ولم تعد تتحرك. أنقذها.

دخل الدكتور وراء الحاجز الخشبي وأخرج السمكة واضعاً إياها في كأس مملوءة بالماء. ذهب إلى المطبخ ليعالجها بالتنفس الاصطناعي كما قال لفريد. عاد بها طافية في الكأس. أعادها إلى الحوض. ظلت طافية.

ـ آسف. لقد قمتُ بواجبي. إنها ماتت.

ـ ألا يمكن أن تكون تلك السلحفاة قد آذتها؟ يبدو عليها أنها مفترسة. إنّ سكونها يبعث على الشك في أن تكون مُسالمة.

ـ لا أعتقد. إنها دائماً منزوية في ركنها المعتاد أو تطفو فوق قَشَّتِها الفِلّينية. عزاؤنا واحد. أنا أيضاً كان يعجبني شكل هذه السمكة الجميلة...

ـ نادية.

ـ عفواً، سمكتك المسكينة نادية.

خرج فريد دامعاً. لم يعد إلى النيجريسكو قط.

أخبار الموت والموتى

قد يقول من يقول

إنه يعيش مرتين.

لكنه سيطول موته:

فمرة بإشاعة،

ومرة بمزاح.

ليس يكفي عيشه

ليموت ميتة واحدة:

فهناك أكثر من دسيسة،

وهناك أكثر من ضغينة

ليدوم موته ويدوم.

باكراً بدأ ولع منصف بأخبار الموت والموتى. أصبح اليوم مؤرّخ الموت الجوّال في المدينة وأوّل من يتخبَّر وفاة شخص بعد

أهله. يقرأ الجرائد بالعربية والفرنسية ويتهجّأ الجرائد الإسبانية. يحصل عليها من المقاهي والحانات من الزبائن الذين يخبرهم بمن مات أمس أو اليوم أو من هو يُحْتَضَر. لا يقرأ خبر وفاة شخص ليضيف شيئاً جديداً إلى معرفته عن المُتَوفّى إلاّ إذا كان كاتباً أو فناناً؛ لأنّ أخبار الموتى العاديين في الجرائد لا تفاصيل فيها. التفاصيل عن أهل المدينة والوافدين عليها الذين تأصلت مكانتهم فيها موجودة عنده من المولد إلى الوفاة. الخبر اليقين يكون عنده سواء مات الشخص في مدينته طنجة أو مغترباً عنها في أيّ بلد قريب أو بعيد: هل موته كان أحمر (الموت قتلاً) أو أبيض (الموت طبيعياً أو فجأة) أو أسود (الموت خنقاً)؟! ثُمَّ هل هُوَ مات صالحاً أو طالحاً؟! كل رواية عن الميت لها مستوياتها في الواقع المحض أو الواقع المطعّم بالخيال عما كانه الميت أو ما لم يكنه أو ما يمكن أن يكونه. كل مستوى في الحكي له كرمه من الشراب، ومزاجه، ومجاملته وعلاقته مع الشخص المهتمّ بأن يعرف خبايا من مات أو مجرّد أن يعرف أنه قد مات. إنك تسمع كما تريد أن تعرف.

منصف قلّما يراعي «أذكروا أمواتكم بخير» إذا كانت للمتوفى مثالب. لكن قد يكون في حكيه عن الموتى ما هو مُسْتَحَبّ أو مُسْتَقْبَح ـ حسب شخصية المستمع ورغبته في كرمه. هناك خبر مات فلان المسكين وهناك خبر مات فلان الذي كان وكان وكان.

وللحيوانات المستأنسة (كلاب، قطط، ببّغاوات، عصافير وغيرها) والنباتات والجمادات له أيضاً في موتها واندثارها تاريخ

وأخبار: أنتوني مات كلبها فبكته حتى بَوَّلها السُّكْر في حانة لو گريّون Le grillon، صفّ الأشجار في طريق المدرسة الفلانية للتعليم الخاص قُطِعَ منها ثلاث لِرَكن السّيارات المنتظرة خروج التلاميذ وحان ـ مطعم الپاراد Parade[1] التاريخي سَيُهْدَم لِتُشَيَّد في مكانه ذي الطابق الواحد عمارة وقد صدق خبره.

لا أحد يزاحم منصف في نشر أخبار الموت إلاّ الموت. مهنته الحقيقية هي سَمْسَرة كراء أو شراء بيت في المدينة القديمة. معرفته بها لا تقلّ عن أخبار الموتى والهدم. يعرف صلابة مساكنها وهشاشتها، لكن متعته الكبرى يستمدها من أخبار أموات حيّه والأحياء المجاورة أو البعيدة. إنّ شغفه بالموت وأخبار الموتى لا حدّ له؛ فهو أينما كانوا يدركهم خبره عنهم. يحكي عنهم بمرح وأحياناً يقهقه ببراءة إذا كان من يحكي لهم مرحين مثله يستحبّون حكيه عن آخر ميت أو عن ذكريات أموات المدينة.

في الجنازة، تعوّد أن يمشي مع المُؤَخَّرين، لكن عندما يقترب الموكب من المقبرة يصبح محشوراً بين الأوائل ثم ينفصل عن الصفّ ليكون أول من يدخل إن لم يكن هناك من سبقه. قد يكون خارج المقبرة أو داخلها أكثر من طفل في انتظار المواكب

---

(١) كان يتردد عليه، بدءاً من نهاية الأربعينيات، كتّاب وفنانون ومشاهير عالميون. فتحته إيرابيلين Ira Belline (مجهّزة ديكور المسرح وملبّسة الأفلام وهي إحدى قريبات ستراڤينسكي) مع جي هازلوود Jay Haselwood وصديقه بيل شاس Bill Chase ثم جاءت بعدهم Lily Delpart شريكة حتى مات بيل وجي فصارت هي المالكة.

أو لا أحد. لا يزاحمه من الصغار مثله في الجنازات إلاّ العَوْني. له وجه دبّ صغير وحجم بطنه بارز لا يتلاءم مع سنّه وقصر قامته. لا يغار منصف من العوني لأنه وديع وسكوت ويشفق على بطنه النهمة. بعد الدفن يملأ منصف بطنه بالخبز والتين الموزَّعَين على المشيّعين. ما يتبقّى، مما يستعطيه من الكبار غير الجائعين، يحمله معه ليوزّعه على رفاقه في حيّه.

لقد كثرت تغيباته عن الدراسة الثانوية فطرد نفسه قبل أن يطردوه. ومنذ أن بدأ يشتغل، تخلّى نهائياً عن حضوره في الجنازات. إذا كان الميت جاراً أو أحد المقربين فإنه يتمارض أو يسافر إلى إحدى مدن الشمال يوماً أو أكثر مختلقاً عذراً يبرره بكذبة خرافية. إنه مهووس بجميع أخبار الموتى والمحتضَرين والمرضى المقعدين إلاّ أنه يولي أكبر حماسة لنشر خبر موت أحد أغنياء المدينة المُحْدَثين وأعيانها. إنها فرصته لرواية حياتهم: من الغِنَى إلى الفقر أو من الفقر إلى الغِنَى أو ما كانه من البداية حتى النهاية. لا يغشاه الحزن أو الفرح على الأموات إلاّ إذا حكى عنهم كما تهوى أن تسمع. في بداية اهتمامه بأخبار الموتى لم يكن قد فطن إلى أنّ الخبر عن الميت تعظم أهميته بإتقان ما يعرفه عنه ويخترعه. اليوم أصبح منصف مخبراً لا ينافسه أحد عن أخبار موتى المدينة. إنه المرجع الوحيد. المستقبح في حديثه عنهم أكثره عن الأغنياء وذوي السلطة المتجبرين. المُلَطَّف المستحَبّ قليل في نميمته عليهم أو هو نادر إلاّ إذا كان ضرورياً أن يجامل السامع المهتمّ بالخفايا، عن حقيقة أو عن مَكْرية. أخباره عن الموتى يبدأها منذ بداية أمراضهم المزمنة العُضالية؛ فهو يذهب ليرى إنْ كان الأستاذ المتقاعد ما زال يقوم برياضة المشي مرتين في اليوم

في حيّه - حسب نصيحة طبيبه. إذا لم يكن منصف متعجلاً يقترب منه ويكالمه. يستقصيه الأستاذ عما حلّ من تغير في الحانات القديمة. فقد ظلّ شريباً حتى أقعده المرض. لا بد لمنصف من أن يراه من قريب أو بعيد أكثر من مرة في الأسبوع. كذلك يفعل مع پول بوولز الذي يخرج يومياً صحبة سائقه ليتمشّى قرب ملعب الغولف. كان قد أجريت له عملية جراحية على عِرْق النَّسا. وَدَّ منصف مرات الاقتراب منه لكي يتمنى له الشفاء، لكن سائقه يبعده بنظراته الشزراء. ألقَى منصف دائماً في مقهى البريد. أداوم على رؤيته. لي عادتي معه: من بعيد أخرج طرف لساني ملتوياً إلى اليمين. يحرك رأسه مبتسماً دائماً إما بنعم أو بلا. إذا كانت «لا» أودّعه من بعيد أو قد أجلس معه لاستذكار أموات السنوات الأخيرة. أما إذا كانت «نعم» فجلوسي معه أكيد. بين ابتساماته وضحكاته الخفيفة يحكي عن محاسن المتوفى أو مثالبه. أجاريه في ابتساماته وضحكاته إرضاء له حتى يسرد معلوماته والخفايا النادرة عن الميت. وعندما أسأله عن شخص أعرفه مستغرباً موته الفجائي، رغم أنّ حالته الصحيّة لم تكن تنبئ بموته فجأة، يجيبني بلهجة العارف بمسار مرضه المزمن كما لو أنه يتكلم عن حصان الرهان المرجح ربحه في السباق: «أنت لا تعرف شيئاً. لقد كان مُرَجَّحاً Favori». إذا كان الميت قد أتخمته الحياة برفاهيتها يعقب بسخرية: «اللي كلا حقّو يغمّض عينو». في لهجته تشفٌ ولامبالاة، لكن من عساه يقتنع راضياً بما يقوله دانونزيو في (تأملات الموت): «بعد أن تحوز كل شيء بالحذق أو بالرضا أو بالغضب فعليك أن تتخلى عن كل شيء وأن تزول»؟!

أصبح منصف يسكن اليوم قرب المقبرة وملعب الغولف.
إنه لا يجيب من يسأله عن اختياره السكن هناك مثلما لا أعرف أنا لماذا تفرحه كل وفاة وجنازة.

ڤيرونيك

كلمة الحب أخشى

على من يتلاعب بها

وعلى من يصدقها.

لم أستطع أن أحقق مع ڤيرونيك أنّ الرغبة غير المنتظَرة قد تكون هي الهبة الوحيدة في العالم. لم أستطع أن أسبر هذا الكابح في نفسي فأقهره. ربما هي حريتي الوهمية في العيش مع امرأة: فأنا أريدها سراباً، انفلاتاً، إرصاداً لما يمكن أن يحدث بيننا ثم يزول ليصبح ذكرى. إنه طموح الشعراء الأبدي. لم تستطع، هي أيضاً، أن تفهم أنني لا أحبّ أن تعرف ما أحبّه فيها. ربما لا أحدنا كان يقصد أن يحدث ما حدث بيننا. هناك أشياء نحبّها معاً. وتبقى الأشياء التي أحبّها أنا ولا تحبّها هي أو تحبّها هي ولا أحبّها أنا مجرد أشياء قد أحسّها أنا ولا يهمني أن يحسّها معي أيّ من كان أو يحسّها من يحسها لنفسه دون أيّ فضول حتى ممن هو أقرب إليه أو منّي.

قلّما يخلو صباح من ذبابة عنيدة تحوّم حول طاولتي في منزلي أو هنا فتحطّ على حافة كرسي أو تنبهني قَرصتُها الجائعة

على يدي أو حول صدغي أو عيني من شروط نظراتي الاشتمالية Panoramique إلى الشارع ومدخل البريد البَرزَخي داخلاً أو خارجاً منه من أحبّ أن أراه ومنْ يُضطرّني إلى مغادرة المقهى قبل أن يغزو كأسي الثانية فينغصها أو الثالثة لأخفّف عني من ثقل كلماته الجوفاء الملتوية وربما أظلّ أحاول تغييب حضوره الطاغي عليَّ المملّ إلى حدّ الاختناق بالكأس تلو الكأس حتى نتشاجر مع النادل عن قصد أو عن غير قصد حسب هوى سكرنا الشَرِس العدواني الأهوج حول التباس طفيف في حساب ما شربناه ثم ينكر أحدنا الآخر أو نفترق على أن نتذكر معاً موعدنا غداً أو في نفس اليوم فما أن أخبط الذبابة الأولى بصحيفتي حتى تحلّ الثانية والثالثة متنزهة إحداهما متوترة هذه مدندنة تلك وفرحتي الطِفْلية هي إذا هما تلاصقتا إذ سحقهما ظهراً على بطن أسهل غفلة وشبه أكيد في الخبطة الأولى فإذا هما لطخة مقززة من شبه حمرة وشبه بياض وقد لا ينتهي السحق اللعين من مثل هذه العجينة إذا كان الجوّ بارداً في الخارج دافئاً في الداخل وهو أمرح للذباب.

هذا صباح جميل أبدأه دون زنزنة ونَطّ شَرس حول كأسي في انتظار ألاّ يأتي هذا أو ذاك من الذين ترغب في البصق على وجهه المتجمعة فيه كل بلادة عيشه الهباء المنثور بين مسكنه وأضيق الأزقة الموبوءة. فأنا حين أبحث عن نفسي في الآخرين غالباً ما أرتدّ إلى نفسي.

ها هو ذا أستاذ العلوم الطبيعية سابقاً الوقور في بؤسه نازل من البولڤار. يداه تشدّان على طرفي ياقة معطفه المرفوعة من الخلف، محدودب أكثر قليلاً في الشتاء، رأسه مائل قليلاً إلى الأمام، خطواته شبه زاحفة كعادته منذ أن أعلن صمته تتخلله

همهمات، ملابسه فقدت لونها الأصلي وشعره الوافرة سوالفه تَساوَتْ مع لحيته. عشّ نموذجيّ لوجه سموح لا تنمّ ملامحه عن فرح أو حزن إلاّ ما نشاء نحن أن نتخيّله ونستشفه منه. في كلّ صيف يجيء شخص ما من الخارج ينظفه ويُهَنْدِمُه ثم يختفي ليظل الأستاذ يتحول من حال إلى حال حتى يصل إلى مثل ما هو عليه الآن في انتظار أن يجيء ذلك الشخص القريب أو الصديق أو لا شيء بينهما إلاّ أن يجيء الشخص الغريب المحسن وينتظر الأستاذ كما قال لي حانيّ حانة خوانا دي أركو حيث كان من زبائنه قبل أن يعلن صمته مثلما منْ نام عاقلاً واستيقظ مجنوناً. لكن هذه السنة يبدو الأستاذ أشعر وأوسخ. لقد تأخر مُغيثه. توقّف الأستاذ وتنشّق سعوطه واقفاً فوق إفريز الرصيف. نفض أنفه ويديه ثم نزل. سيظلّ الأستاذ في هبوطه وصعوده عبر البولڤار حتى المساء كما تعوّد أن يفعل منذ أعوام همهمته وصمته. لا أعرف أين يأكل وأين ينام. أعطاه عابر قطعة نقدية. لم ينظر إليها. لا يتسوّل، لكنه لا يرفض إذا تصدق عليه أحد.

كارلي طالع إلى البولڤار. يجيء عبر الكورنيش ثم يعود إلى حيّه في السوق الداخلي. هو أيضاً أعلن صمته وهمهمات حواراته مع أشخاصه الوهميين منذ أكثر من ثلاثين عاماً. ما زال محافظاً على مشيته الاختيالية وإشاراته الاتهامية، التهديدية. أحياناً تطفو أسماء الذين يتهمهم بالخيانة والدناءة مثل شبحي زليخا والمصطفى. اعترضه الأستاذ ووضع القطعة النقدية في يده المتراخية بحركة كما لو أنّه يُؤمِّنه على شيء ثمين وتابع الأستاذ بطء خطواته، لكن القطعة انزلقت من يد كارلي عندما فتح يده ليراها فتدحرجت قبل أن يدوسها ويلتقطها ويتأملها فإذا بطفل

شارعيّ بائسة حاله يشمّ «خرقته المُخَدِّرَة» يقف أمامه. نظراته زائغة وفمه فاغر ناشف. انزلقت القطعة من يد كارلي مبتسماً وسقطت في يد الطفل المرتخية. عاد الطفل من حيث أتى كما لو أنه جاء فقط ليتسلّم القطعة النقدية. مشيته مُتعَبة.

دخلت الزهرة زافرة لعناتها لا على أحد. طلبت مائة درهم من لا أحد. أشعل لها النادل سيجارة وأشعل لنفسه أخرى وقالت ناظرة إلى السقف: «جاءوا وخابوا». حملت سطلها المملوء بحاجياتها ولعنت بصيغة المفرد ثم خرجت. هي أيضاً تُعنى بها الراهبات أكثر من مرة في السنة. آخر مرة صرخت طالبة أربعمائة ريال لتذهب إلى الحمّام. كانت أطرافها فحمية اللون وشقاؤها كان متجمّعاً كله في وجهها. أحياناً لا تعيا من أن تظل تدور وتدور حول نفسها في رقصتها الدراويشية. مرة ألبسوها ثياباً لائقة بشبابها ـ الذي ما زال الكثيرون يذكرونه ـ أكثر مما هي لائقة بكهولتها فأصبحت تتجول شبه عارية بيننا. أكيداً نامت بعيداً عن حيّ حُماتها الصغار أو ربما هم أنفسهم استَغْرَوْها في رقصة جنونية. فكل شيء مباح في أُخُوّة عشيرتهم. لكأنها ولدتهم لا يعرفون بمن يلوذون. إنها حضن حميم في ليل شمامي «الخِرقة المُخَدِّرة»[1] هؤلاء. ذات صباح، فاجأتنا طلعتها المطلية بالمساحيق. ربما أراد حُماتُها تجميل وجهها المجعّد وشفتيها المزمومتين كحَدّ الموسى على فمها الأدْرَد (عديم الأسنان) فبدا مثل نَدْبٍ أكثر منه فم. الويل لمن يقترب إذا كانت

---

(١) أيُّ خرقة تُنقع في نوع من الصمغ (اللصّاق). المَخدر مفعوله شبيه بمفعول الأيثر المعروف بـ (السليسيون).

محاطة بصغارها. إنها «مَلْخَة» ينالها الفضولي بأيديهم النشّابة ومحظوظ هو إذا لم يستعملوا معه أدواتهم الحادة. على العابر أن يغيّر طريقه أو يمرّ في حذر وصمت ولا أكثر من السلام عليهم دون أن يثير أدنى استنكار أو مجرّد تَطلُّع.

ڤيرونيك تدخل وعيناي على البرزخ المفرح أو المزعج. أنا وهي لا نتسالم في الصباح إلاّ بالنظرات والابتسامات. فطورها شاي أسود دون سكّر. كنت قد نبهتها إلى سمنتها وأبديت استبشاعي للبنطال المشدود على المُؤَخَّرات فلم تعد تلبس غير التنورات الطويلة لتروق لي. نوع من الاستحواذ والإخضاع. ندمت على ملاحظتي. قد يبدأ كلامنا المتقطّع عند كأسي الثالثة أو الرابعة وبيرتها الثانية أو الثالثة وسجائر وربما تناولتُ شمّة أو شمّتين من السعوط للتخفيف من ثقل الشّراب بعطسة أو أكثر من عطستين إذا كان هناك من لعين ينشقه وتَكرّم عليّ. أحياناً لا أعرف كيف أوقفها عن الشّراب مثلما لا أفلح في أن تصاحبني فيه إذا ما استبدّ بي حزن العناد في الشراب لأسكّن محبطاتي. قد تعاكسني رافضة في حِرانٍ أو يكون جوابها هو شرب كؤوسها الواحدة تلو الأخرى دفعة واحدة فأكفّ عن الإلحاح على شرابها معي حتّى لا تثير شفقة الرواد عليها وسخريتهم منّي. لا أعرف كيف أتخلص من استبدادي الهمجي.

النقاش ساخن بين إميل حبيبي وإلياس خوري في منزل حنان الشيخ. الزجاجة فارغة بيننا عندما انتبهتُ إليها. لم أكن قد شربتُ إلاّ كأسين بينما ڤيرونيك مستغرقة في النظر إليهما كما لو أنها تتابع باهتمام تحليلهما للحرب بين العرب واليهود وفلسطين التي كشفت عن تخاذل العرب متمثّلة وحشيتها في تَتَرِيَّة «أيلول

الأسْوَد». لم تكن تعرف سوى كلمات من الدارجة المغربية تعلمتها من عاهرات الحانات الشعبية في طنجة التي تتفانى في الإعجاب بها وحبّها. لم تكن لي مؤهّلاتهما لأشاركهما في موضوعهما الشائك. ثمّ بدا لي كأنهما لا يباليان بوجودي الذي قد لا يعنيهما في موضوعهما المشترك. جاءت حنان الشيخ كما لو أنها تمشي على البساط السحري ووضعت لنا زجاجة ثانية ثم انسحبت متمنية لنا صحّة جيدة. قلت لها وهي تملأ كأسينا:

ـ ڤيرونيك، إننا لن ننام هنا. (نظرت إليّ دون تعبير ثم ركّزت نظرتها المتخشبة على إميل وإلياس). أنت تعرفين أنني لا أعرف كيف أغيّر الميترو هنا.

كانت أول مرة أزور فيها لندن من طرف إحدى الجمعيات الثقافية. قالت مستغرقة في نظرها التِمْثالي إلى إميل حبيبي وإلياس خوري اللذين استرختهما كؤوس الويسكي وتعب النقاش المتأجج فصارا يتكلمان كما لو أنهما يتذكران فلسطين ولبنان قبل وبعد الحرب:

ـ أعدك بأننا سنصل في سلام.

صرت أعبّ من الزجاجة حارساً كأسها من أن تملأها بنفس السرعة التي تفرغها بها. لا أذكر كيف خرجنا وكيف غيّرنا الميترو! فندقنا ڤكتوريا بعيد عنّا. من أسند الآخر حتّى وصلنا؟ لا أحدنا يذكر أو يدّعي. ربما كلانا قاد الآخر! برد الشارع أصحاني قليلاً فطلبت كأس ويسكي وطلبت هي بيرة لتصحو كما قالت. إلياس خوري يقيم معنا في الفندق. وقف أمام طاولتنا وقال:

ـ قلت في استجوابك لمجلة فراديس إنني عِنِّين وأنا كلِّي إيرٌ لو كنتَ تعلم.

ـ بسيطة. . . !

دعوته إلى كأس لألطِّف مزاجه. . . لكنه رفض. ذهب لينام كما قال. رأيناه يحوم حول مشرب القاعة ثم ينصرف.

ـ ماذا قلتماه؟

ـ كلام تافه عمّا حدث بيننا في فندق سولازور منذ سنوات في طنجة. مازحني صديقه الشاعر محمود درويش حول الفحولة التي يتزعَّمها أحياناً مثل البِلاي بوي أينما يكون. صفَّق له إلياس وكنت أنا ضحيتهما في ذلك المشهد الصّباحي. ذهبت لأوقظهما لأنّ درويش كان سيقرأ شعره مع شاعرين آخرين مساء في الرباط. سألني وهو يتعطّر إن كنت أملك ڤيللا في «الجبل الكبير» فقلت له إنني لا أملكها. قال إنني لم أعرف كيف أغتني رغم أنّي عرفت جان جنيه وتينسي وليامز وكنت خليلهما أو شيئاً من هذا القبيل. قلت له ربما كان هو الأشْطرُ والأغوى مني فنقتسم الغنيمة إن شاء أن أقوده حيث يفحل. لكي أسكّن من غضبي في ذلك الصباح المنحوس كدت أشرب ثمالة زجاجة الويسكي كاملة كأساً تلو كأس في غرفتهما لولا أنهما أوقفاني. شيئاهما لا ينتصبان. هذا ما قلته عنهما حقاً أو باطلاً لصحافي في باريس.

ضحكتْ ڤيرونيك وقالت:

ـ حكاية التيس والعنزة. نكتة بدوية. كان يمكن له أن يشرب معنا كأساً. إنه حزين كما بدا لي.

ـ صحيح. لقد رضع من الحزن ولم يقدر أو لم يرد أن ينفطم منه.

لا أعرف أيضاً كيف أوقف حبّ ڤيرونيك للقطط. ففي لا روشيل La Rochelle دعانا شبّان موسيقيون إلى سهرة في منزل أحدهم. عيناها تحمرّان وتدمعان وأنفها يسيل وهي لا تكفّ عن ملامسة وضمّ وعناق وتقبيل القطّ الضخم المرة تلو المرة حتى هاج قرفي وتخيّلتها عارية يتدبق جسمها كله أينما لمستها فهددتها بانسحابنا من السهرة التي راقتها كثيراً إن هي لم تترك القطّ العجوز اللاصقة شعيراته على جِرْسايَتِها[٢] فتخلّت عن مداعبته، لكن اللعينة ظلت تغمزه بنظراتها وتغويه بابتساماتها كلّما غفلتُ عنهما فَضِقت باستغمايتها الصبيانية معي. أما مضيفنا اللطيف فقد بدا مسروراً ببلاهة بقطّه عندما رآها تلاعبه برقّة مثلما تدلله أصغر أخواته كما قال لنا بابتهاج. غير أنه لم يَغَرْ ولو مرة واحدة من ڤيرونيك كما كنت أتمنى، ولم يشتق القطّ اللعين ولو مرة أيضاً إلى سيّده ليحضنه ويغدق عليه ما شاء من الملاطفات مكتفياً بمدح سلوك قطّه الحكيم أكثر من أيّ قطّ رآه في حياته. كم تمنيت لو أنه يستميل قطّه ولو بِلَمْسَة أو بَشْبَشَة لكنّهما هو وقطه متفقان على هذا البعد الحلو بين من يأتي عندهما ومن يذهب. يا لهما من لعينين!

إنّ ڤيرونيك سيّدة مشاعرها لِما أحبّه أنا وتكبحه هي، وما

---

(٢) كنزة صوفية تُلبَس من طرف الرأس. (بالإسبانية: Jersey) و(بالفرنسية: Pull-Over).

تحبّه هي وأنفر منه أنا فتبقى مشاعرنا مباحة بيننا على هوانا مثلما كنت مع فاطي الودود.

كنا نقيم عند جولي ومحمد. أبديت رغبتي المهووسة لزيارة المقابر الثلاث: پير لاشيز Père Lachaise ومونمپارناس Montparnasse ومونمارتر Montmartre. إنّها رغبة ماسة مُلِحّة لزيارة قُرَى ومدن الأموات في أيّ بلد أزوره حتى ولو لم يكن فيها من أعرفه من مملكة الأموات. رَجَتْ جولي ابنها برتران Bertrand أن يأخذنا في سيّارته إلى ملكوت الأموات. ألحّ عليَّ أن أركب إلى جانبه حتى أستمتع أكثر بما سأراه، كما قال. يسوق برزانة شارحاً لي نشأة الشوارع التي يعرف تاريخها كما لو أنه يقرأه أمامه في خريطتيها القديمة والحديثة. كنت أبدي إعجابي بمعلوماته بينما محمد وڤيرونيك صامتان أو يوشوشان أو يداعبان الضحك. يبدو برتران حيوياً مثل أمّه التي تعمل مثل قُنْدُس(٣). قلت لمحمد بعد أن سرنا في أوّل أحد الممرات المبوّبة بالأرقام:

ـ إنها مدينة الأموات حقيقية. أبداً لم أر أجمل منها. بعض المقابر مزبلة.

ـ هي مقبرة كونية. ستجد هنا معظم الذين قرأت لهم من كلّ الأجناس.

تصلنا من هنا وهناك لوغوساتُ برج بابل. ڤيرونيك وبرتران توقفا أمام جوزيف غينسبورغ Joseph Ginsburg. كل قبره مُسَيِّج بالزهور المغروسة أو في محابق أو مَشاميم مُغَلّفَة في

(٣) Castor: حيوان معروف بعمله الشاق في بناء منزله المائي على شكل سدّ لحفظ صيده من الأسماك.

ورق شفّاف، صورٌ له ولمعجبيه مبعثرة، المنفضة العزيزة عليه على شكل قوقعة من الفخّار أو هي شبيهة بأُذن، بطاقات مكتوبة وقطعة نقدية جَنْبَ شاهدته الرخامية، وسادة نُسِجَت زخارفها بالورود ودمية كلب من القطن، في وضع حزين، تتوسَّد رخامة مُذَهَّبَة حروفها:

A toi Serge

Tes Amis

DE L'ESPERANCE

لقد نَسوا أن يحملوا له ورقة الخمسمائة فرنك التي لَفَّ فيها سيجارته ودخّنها أمام جمهوره في التلفزيون. مركبة فضائية فإذا به رمز لسفر أزرق.

لم أكن قد سمعت به قبل أن أعرف ڤيرونيك. اشترت أغانيه في سي دي .C. D. كلماته ذكية، لكني لم أتحمّس كثيراً لغنائه. انزعجتْ قليلاً وصَوَّتتْ: «Pfaff». ربما لأني لم أكن في التاسعة عشرة مثلها، لكنها عندما أهدت لي ساتي Satie وصرت مهووساً به أكثر منها غَفَرَت لي عدم حماسي للإعجاب بمعبودها غينسبورغ. تتفاهم مع برتران وجولي وأقلّ مع محمد ونظل أنا وهي مشدوداً كلانا إلى رغبته المبهمة في تحضّنه بها.

توقف معي محمد أمام كوليت COLETTE وابنتها. باقتان غير ذابلتين. فكرت أنه ما زال هنا من يتذكر La vagabonde وGigi. ذكرت أيضاً أنّ كل باقات الزهور و«المحابق»[٤] ربما لم تحملها إلى هنا إلاّ النساء.

---

(٤) استعملت المحبق (ج محابق) بمعنى وعاء لغرس الحبق وغيره: أَصيص (ج) أُصُص.

قبر ألكسندر دوما (الابن). في سقف مُصَلاّه الصغير مكتوب رثاؤه بخط فنّي وعلى تمثاله الرخامي المنعوش فوق قبره مغروز في أنفه مسمار صدئ. زفرتُ:

ـ تخريب غريب. . . !

إني أتخيّل شخصاً مجنوناً بالليل. مجنون الليل هذا يهوي بمطرقته هنا ويضع زهرة هناك، يقبّل هذا القبر ويبول على ذاك، يحنو هنا ويقسو هنالك. يبدو أنه قد حيّر الذين أرادوا إيقاف استيهاماته. إنّ الممسوس تسخّره الأهواء البشرية النائمة بينما هو يؤكّد سلطة الليل ـ ليله. إنه شريك البومة في يقظتها المتحفّزة مراقبة انتهاء فريستها من التهام غنيمتها ليكون لها فيها حظّ غنيمتين هي الحاضنة.

قال محمد ليخرجني من شرودي:

ـ أشياء كثيرة تحدث هنا في الليل. ساديون يقفزون فوق الأسوار. قد يحرقون حتى الأشجار. إنّ عددها هائل: حوالي ١٢ ألف شجرة في پير لاشيز كما يقال. وللنهار أيضاً مجانينه. هناك قبر الصحافي ڤكتور نوار Victor Noir (١٨٤٨ ـ ١٨٧٠) فوقه تمثال من البرونز (برع المَثّال دالو Dalou في صنعه) له بروز جنسي تلامسه نساء ويقبلنه. ربما هنّ عاقرات ويعتقدن أنهنّ سيحبلن إذا هنّ لمسنه وقبلنه ومصصنه ولو استطعن لبلعنه وسرطنه أو ربما فقط إشباعاً لاستيهاماتهن أو يردن أن يتزوجن قبل أن تبدأ سنّ اليأس. وأضعف الإيمان من الحشمة يرددن في همس: ڤكتور، العزيز ڤكتور! يا لهن من لعينات! على أنّ حكاية الرقيب برتران (Le sergent Bertrand) المرعب في أواسط القرن الماضي الذي كان يضاجع جثث النساء ثم يبقرها ويبترها لم

يحدث مثلها حتى الآن في پير لاشيز وغيرها.

إناء قصديري صغير نابتة فيه زهور صغيرة متواضعة وجنبه قارورة تنتظر من يملأها ماء من جديد. ربما هو وفاء شقية حبّ له ولها(٥). مرغريت غوتييه(٦) وحرصها على شراء زهورها المعبودة ربما أكثر من حرصها على اقتناء دوائها. شهيدة الحبّ الزئبقي والمرض القاتل والإفلاس التام في المزاد العلني لتسديد ديونها.

قبر جميل ذو طابقين أثار انتباهي رخامه الأسود: محمد وكريستين. وعلى خطوات منه قبر مكتوب بالعبرية.

لا تستغرب. الدفن هنا لكل من يشتري قبره، إذا وُجِد له مكانه.

قبر جيرار دونرڤال أكثر حظّاً بباقات الزهور الباهظة الثمن. تُرى هل فكّر في تلك المرأة التي تشبه أمّه قبل أن يشنق نفسه؟(٧) «لم أر أمّي قط. أعرف فقط أنها كانت تشبه حَفْراً مطبوعاً في ذلك الزمن، حفراً أسموه (La Modestie)، يُمَثِّل الحفر امرأة شابة جميلة، خافرة عينيها، أنفها رقيق وفمها صغير مرسوم ببالغ الدقة». وإذا كان أبوه الطبيب المساعد في (الجيش الكبير) أثناء الانتصارات النابوليونية قد ظل يحمل علامة الحداد طوال حياته عن استشهاد زوجته التي أصيبت بالحمّى عابرة معه

---

(٥) إشارة إلى ألكسندر دوما وبطلة روايته غادة الكاميليا.

(٦) اسمها الحقيقي ألفونسين پليسي Alphonsine Plessis ثم ماري دو پليسي Marie Dupllessis بعد أن تبرجزت. صار قبرها مزار العشاق حاملين لها زهور الكاميليا: شعارها الذي كانت تعبده.

(٧) في فجر ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٨٥٥ - بينما باريس مغمورة بالثلج - شنق جيرار دو نرڤال نفسه في زقاق Vieille Lantern.

جسراً مكدساً بالجثث نحو جحيم أبيض، أسود وأحمر فإنّ جيرار سيظل يبحث عن الواحد في المتعدد، عن وجه أمه في وجوه النساء التي صار يخترعها دون كَلَل أو مَلَل. نساء الحلم والاستيهام وسحر الخافية (Mystère)، وجه يتطيَّف (من الطيف) متأرجحاً بين العدم والموت حيث يصبح الحلم سيّد الواقع، والأسطورة فوق التاريخ. إنها نفس حرقة جان جنيه مع أمه المجهولة، وعاشقه عبد الله الذي ظل يعدد وجهه في وجوه لامتناهية شاعراً نحوه بالذنب لأنه بالغ في تحميسه إلى الارتقاء بفنه الذي ربما قاده عجزه عن تطويره إلى الموت.

نبهني محمد إلى قبر أوسكار وايلد، المأثرة المجنونة، الملائكي، المجنح، المبتور عضوه التناسلي:

ـ أنت ترى، كل شيء يمكن أن يحدث هنا.

For his mourners
will be outcast men
And outcasts
always mourn

بلزاك مُسَيّج قبره التمثالي ربما بكل الزهور التي وصفها في كتبه. ألفريد دو موسيه A. du Musset وروسيني قبراهما قفران. لا شيء من الظلال الوارفة الاخضرار التي تمنّاها موسيه فوق قبره.

حديقة قبر بودلير المجيد وحدها تشكل مملكة مستقلة. لا ينقص حُلّتَه الموميائية شيء في سموها. كان وحتماً كان له أن يكون هكذا أو أكثر. يملك الآن كل الفضاء الذي يحبه في عزلته المحصنة. لا أحد يزاحمه. قبر هناك وقبر هنالك. وضد إرادته دفن زوج أمّه غير بعيد منه كما لو أنه سيحميه بأوسمته

الجنرالية. كان في الأوراق مزيج من بقايا اخضرار، وبدء اصفرار ولون تربة مُرِّيخية أو زهرية (نسبة إلى كوكب الزهرة) مترامية حول قبره. تراءت لي أنها الأقرب إلى مزاجه. لقد أنكر وطنه ليعثر على وطنه. ربما فكر أن الجمال لا وطن له. إنه لم يقامر بحياته ليكسب أصدقاء مغفلين.

ـ آه من تحب إذن، يا أيها الغريب؟

ـ أحبّ الغيوم،

الغيوم العابرة هناك، هنالك،

تلك الغيوم الساحرة!

إنك أوفرُ حظّاً من الشاعر الشبيه بِقَطْرَسك(٨):

Le poète est semblable au prince des nuées
Qui hante la tempête et se rit de l'archer;
Exilé sur le sol au milieu des huées(٩)
Ses ailes de géant l'empêchent de marcher.

برتران وڤيرونيك يتبعاننا من بعيد. بينهما بضع سنوات. من الصعب أن تخلق معه علاقة. إن قصة حبه مع رفيقته أسمهان مصفّحة ضد أيّ اختراق. ظلاّهما يشكّلان ظلاً كثيفاً لا يخترقه أيّ شعاع بشري أو غباره. إنّهما ـ هي وهو ـ النموذجان البشريان الأوحدان في كل لوحاته الأسطورية. الأنا وَحْدِيتهما لا يخترقها أيّ حسّ بشري غيرهما. وحيدان في العالم يجوبان الغابات راكبين الحيوانات الضارية التي أَنْسَناها. ربما استطاعت

(٨) القَطْرَس أو البُطْرُسي Albatros طائر بحري كبير لا يحسن النزول بجناحيه الكبيرين.

(٩) Cris de dérision de la foule

ڤيرونيك أن تخلق علاقة مع قطّهما الضخم مثل قطّ مضيفنا الموسيقي في لاروشيل. إلاّ أنّ قطهما أقل ألفة. ربما استألفته بشيطنتها. أنا أعرفها وأعرفه. إنّ له أيضاً حساسيته مع بعض من يلمسه. فقد رأيته مرة يعطس وينظف نفسه عندما لمسته تينا صديقة أسمهان. قد يختفي أو يراقب من بعيد إذا هو دُوعِبَ أكثر من مرة ممن لا يستهويه. إنه لا يتدلل مثل القطط العادية. فكرت أنه أصيل في كبرياء قطّيته واختيال تدلله المميّز. عبثاً توسلت إليّ ڤيرونيك أن أربي قطّاً شارعياً. سَمَّته كالي يوماً قبل أن تغادر طنجة. لم يكن يبرح شارع مسكني. تطعمه وتلامسه وتخاطبه حتى أملّ من انتظارها فتلحق بي إلى المقهى.

ـ خذيه معك إلى بروكسيل. خذيه...! أكيداً أنّ جدتك ستعتني به كما تعتني بالسناجيب الوحشية التي تزور حديقتها كل يوم.

ـ للأسف! إنها أيضاً لا تحب القطط.

ـ أنا أيضاً لا أحب القطّ إنما أحبّ كبرياءه من بعيده.

سأعلم من محمد أن برتران حملنا في سيّارته على غير رغبته. كنت له مُغَفَّلاً (Un com) وهو يرى مندهشاً إعجابي المهووس بالمقابر الثلاث كما قال لأمّه التي عاتبته على تدخله في وساوس سلوتي. ربما فكرتْ بطيبتها المعهودة أننا نتمنى ونحن أحياء أن نُزار ونحن أموات.

عندما زرت باريس، في المرة الثانية، أهدى إليّ برتران علبة المدمنين على الكحول مجلدة لأملأها بشرابي المفضل تخفيفاً لي من برد شباط/فبراير الباريسي وبادرني بسرور إلى زيارة مقبرة پيكپوس Picpus حيث يرقد المقطوعو الرؤوس ليكون للجمهورية

مجدها الدامي من النبلاء والكادحين على السواء وتتحقق مقولة «الثورة تفترس أبناءها». ولِمَ لا! ففي النهاية نحن كلنا مقصولون. . . ! ومن جديد أيضاً مقبرة مونمارتر ومونپارناس إن شئت. هكذا قال. أهو ندم أم إرضاء لمشاعر أمّه الودود في معاملة ضيوفها أو هي رغبته المحضة التي لم يكتشفها في نفسه من قبل؟

نزلنا أنا ومحمد وڤيرونيك في طريق موفطار Moufftard وذهب برتران عند رفيقته أسهمان التي تنتظره عند أمّه. قال محمد: هنا كان ڤرلين يجرّ عصاه التي يُثقلها تعبُه فتصير مثل هراوة وله فيها مآرب أخرى كأنْ يهوي بها على ناشره الذي غشّه في حقوق كتبه. باقة زهوره المفضلة التي يرسلها له معجب مجهول يجدها فوق طاولته في مقهاه Procope على ما أعتقد. كان هناك أرنب برّيّ معلقاً في حجم حَمل دفعنا ثمنه على أن نجده عند عودتنا جاهزاً مقطّعاً ما عدا دمه المتجمع في أسفل رأسه المغلّف بِحُويصِلة من البلاستيك الشفّاف. فليصنعوا بدمه ما يشاؤون قلتُ أمّا أنا فيقرفني هذا التخثر القاتم. اقترحت طبخه بالبرقوق المجفّف والبيض المسلوق فوافقني محمد ولم يكن لڤيرونيك اختيار أفضل. من فضائلها في الأكل أنها تحبّ كل ما أطبخه. ربما للاكتشاف! لو كنت وحدي أو معها في طنجة لطبخته بالبسباس. جولي أيضاً تستلذ طبخي. تعترف أنها ليست موهوبة كبيرة في فنّ الطبخ. إنّ عملها في الترجمة والتأليف لا يشجعها على مغازلة الطبخ وتدليله. من عادتي أن أحمل معي التوابل من طنجة رغم أنها موجودة كلها هنا. حتى توابل «راس الحانوت» هناك من يبيعها في باربيس، لكن نكهة التوابل تختلف

وإن تشابهت لأنها محملة بحنين مكانها الآتية منه كما يقول محمد الذي يضايقه من يسأله عن سبب إزمانه في اغترابه دون زيارة وطنه منذ أكثر من عشرين سنة.

حانة Mayflower مشهورة بأجبانها الجيدة وأنبذتها. قلت لمحمد بأني أشمّ في الحانة بقايا رائحة همنغواي وفتزجرالد وربما فوكنر. قال إني لم أخطئ. فكرت في حانة دينزبار.

قالت ڤيرونيك ونحن في بداية النوم:

ـ هناك من يطلّ من فتحة الباب.

ـ وبعد. إذا كانت هناك فتحة الباب فقد يطلّ منها أحد.

صوَّتتْ كعادتها: پوافْ Puaf.

فكرتُ: ربما هو وهم الليل في بداية النوم وقد يكون حقيقة ما تقوله. إنّ لها بصراً شيطانياً. نهضتُ وأغلقت الباب وأسندت إليه كرسياً. في الصباح قالت:

ـ أنظر، إنّ الكرسي قد تزحزح عن مكانه.

قد يكون صحيحاً ما تقوله أو ربما من اختلاقها لأنني أعرف مكرها الطفولي. تحب المنازعة بين الآخرين ولا بأس من أن تخلقها. هي أيضاً لعينة وإنْ كانت لعنتها ألطف.

ـ إنها عين الليل التي تستهويها معرفة كيف تتمّ الهمسات، والقبلات، والعناقات والنوابض الإيروسية. إنّ عين الليل تكون خلفَ الباب في كلّ مكان. تذكري صاحبة الفندق في بروكسيل. هي أيضاً استرقت السمع على نوابض سريرنا. قالت قبل أن نملأ بطاقتي إقامتنا: هل هي ابنتك؟ اللعينة. لم يسرّها أن تكوني عشيقتي. هل تذكرين؟ أكيد أنها لم تكن تُناك جيداً تلك الدجاجة البشرية.

بدءاً مما حدث لنا مع صاحبة الفندق اتفقنا على أن أخلق منها ابنتي وهي مني أباها. أن نمثل دور الأب وابنته للسخرية المرحة أكثر مما هو إخفاء لعلاقتنا.

كانت أمّها في قيلولتها. لا أعلم إن كانت نائمة أو مسترخية يقظة. أحذر دائماً من نوم الأمّهات. لم أسأل ڤيرونيك عن نوع قيلولة أمّها. وهل لي أن أصدقها حتى لو قالت عنها ما يمكن أن تقول!؟ إنها تلقي في يدك بمفرقعة ولك أن تدبر أمرك معها. كنّا نتداعب في غرفة الاستقبال والكناري موزار يغني قافزاً بين العارضتين. قالت متهيّجة: نفعله هنا. هنا نفعله. قلت: إنّ أمّك تنام أو لعلّها يقظة. قالت لا يهمني كيف تكون. إننا سنفعله هنا وماذا يهم أن تكون هناك! قلت ربما في الشرفة أفضل لنا فتهلل وجهها واستعجلت حتى كادت أن تهلل هللويا هللويا. فكرت في أمها تستيقظ. إنّ حدس الأمهات وحسهن بالغان. لقد استعصى علينا الدخول إلى الحمّام من نافذته في الشرفة. لم أعرف ما أفعل بهياجي. لمسة تحت، لمسة فوق وفي كل مكان يتوالد اللمس والفم في الفم واليد تغزل الشعر. قلت لها ربما يمكن لنا أن نفعله خارج الشقة في الدرج فتهلل وجهها أكثر. أقفلنا الباب بسكون ومارسنا بعضاً من الجنون واقفين حتى لا يفضحنا تَحَسُّسُ الجيران لو أننا انطرحنا فوق الردهة. كنا نمثل دوراً لا يشاهده أحد. سنكون ما نريد أن نكون. ما شئنا أن نكون ولو بأقلّ الجنون. قد يأتي علينا يوم لا نستطيع أن نكون هنا. طشت مع ڤيرونيك قليلاً أو كثيراً في هوس إيروسها النزوي. قالت هنا نفعله. هنا. قلت لا يمكن أن يكون. حيّرنا المكان ولم يكن يهمها الأين يكون. أدركت أنها تتحدى أمها

وتستفزها ولو في الغياب. قد تتمنى أن تباغتنا أمها متلاحمين أعلوها أو تعلوني. لهثنا ولم نفعل إلاّ أقلّ مما أردنا من جنون. عدنا إلى الغرفة. أنا استلقيت على الأرض وهي على المضجع. كنت لنفسي وكانت لنفسها. لا يسأل أحدنا صمت الآخر. حوارنا في صمتنا. تناظرنا ثم غفوت ولا أدري ما فعلت بسقفها.

أفاقت أمّها قبلنا. تمشت في الشرفة ناظرة إلى جزء من البحر و(هضبة الشَرْف.) لمستْ نبتة بظهر يدها وشمَّت وردة حمراء ثم همهمت عميقاً وقالت: إنك تملك أكثر من شرفة. إنها حديقة مُعَلّقة.

جاءت لترى كيف تعيش ابنتها في طنجة. قيل لها ما قيل من أنّ ابنتها تعيش مع كاتب ملعون مدمن على الكحول والحشيش وكل ما هو مريب. يا للعار! إنّ ابنتها ذات جذور في النسب والوقار. كيف لها أن يكون لها هذا المصار! لا شيء رأت مما سمعت. فقد أنزلناها في فندق الجنينة. قدمت لها رسامة مغربية فاشلة في فنّها وحياتها الزوجية لعلّها تتسلى بها. ماذا تفعل ابنتك مع هذا الكاتب السكير العجوز؟ إنه سيفسد لك ابنتك. خذيها معك. هذه نصيحتي لك. هذا ما حكته لي ڤيرونيك كما سمعته من أمّها. وكانت الرسامة التي كشفت عن خيانتها لصداقتي معها تلهث جاهدة في مَصّ أزباب نفطية مرتخية ضامرة. حتّى إذا أتاها أحدهم من دُبُرِها قالت شاكية ما هذا بحجم إلاّ أن يكون أقلّ مما تعودتُ عليه، أمّا من قُبُلِها فإشباعُ آهاتها أكثر طلباً لها. استضافتنا أمّ ڤيرونيك للغداء في فندق المنزه أنا وابنتها والرسامة المصاصة. في شقتي طبخت للأمّ وابنتها.

أغوتها مباهج المدينة وتمنت أن تبقى معنا على الأقل حتى تعود معها ابنتها. تصابت في عمرها القريب من الستين فراقني شبابها في كهولتها. أشرق وجهها وهي تغادرنا في المطار. ربما ستحكي لزوجها وأمها أن لا شيء مريباً فيما قيل لها عن ابنتها مع العجوز الكاتب. الأمّ أيضاً كانت تسلي نفسها بكتابة قصص غرامية بطلتها هي وقارئوها ربما لن يكون إلاّ هي. كان تفكيرها وفنّ الكتابة لا يتفقان. كانت تكتب وكان فنّ الكتابة ينتظر من يكتبه. قلت لڤيرونيك: إنّ تسامح أمك معك أرحبُ من سخريتك منها. إنني أمزح. ومن حقي أن أمزح مع أمي. الحق أنها كانت تحبّ أمها على طريقتها. أدركت أن ڤيرونيك أحبت أن تبقى إلى حين ينضب ما وفَّرَته من عملها في إحدى الكافيتيريات خلال سنتين في بروكسيل، وما يمكن أن يدوم ممّا ستمدّها به أمّها الكريمة، لكني قررت أن أوقف مغامراتنا: ڤيرونيك، عودي إلى أمّك ودراستك. عودي إلى نفسك أو إلى ما شئت بعيداً عني فأنا لست إلاّ لنفسي. وكذلك كان. فقد عادت إلى ما شاءت أن تعود ولم نعد نتراءى أو نتهاتف أو نتراسل. لا أعلم اليوم أهي حية أو ميتة!

- ڤيرونيك.
- نعم.
- هل نذهب إلى المنزل للغداء؟
- ألا نشرب كأساً أُخرى في الحمراء؟
- سنشربها.

كانت حانة الحمراء هي معبرنا في معظم الأحيان إلى شقتي. إنها تحب أن تأنس بالحديث مع بعض العاهرات هناك.

وجهي في الفصول

لم تكن لدينا مرآة في الدار؛ لأنّ لا أحد منّا
كان يريد أن يرى وجهه فيها.

في طنجة، مدينتي العجائبية هذه، يصيبني فيها اليأس حينما أتخاصم مع نفسي دون أن أعرف السبب. أيأس حينما أعجز، في الصباح، عن استذكار حلم جميل أبدأ به يومي. إنّي أتعلق بالأحلام؛ لأنها مثابةُ خَيط «أريانا» في متاهة المدينة. إنّ أحلامي تحميني من الابتلال بأمطار اليأس.

كان لي صديق آمن بأنّ من لا يعرف كيف يحلم بحياته فليأْتِ إلى طنجة. وكذلك كان، لكن الصديق ارتدّ كافراً بأحلامه فيها فأدخلته في جحيمها.

إذا كان العالم من صنع أعظم الحالمين فأنا تركت حلمي يصنع عالمه.

عندما أنسى الكلمات يبقى ما تشكّله من صور.

تثور عواطفي عندما أكتشف أنّ شخصاً كنت أعتبره صديقاً فإذا به لم يكن إلاّ انتهازياً. إنني أحنّطه وأضعه في أحد أركان مقبرة ذاكرتي للذكرى لأنّ فيه جزءاً من حياتي.

اكتشفت أنّ قليلاً من هياج عواطفي يساعد على إنعاش قلبي وكثيراً من غضبي يساعد على إشلال جسدي وتشتيت فكري. لا تسعفني ذاكرتي وأنا غاضب.

طفولتي هي الغيمة الأكثر تَلَبُّداً في حياتي. لا أحد كان يجازي عملي. كنت لا أكثر من طفل يُصفَع. لم تكن هناك حتى بسمة. كنت أعيش ولم أكن قادراً على تغيير شيء، لأنّ كل تغيير يتحكم فيه الكبار. كيف سأتحمل طفولتي وأواجه ظروفها...؟ لم أفكر بخوف أو شجاعة، لأنني لم أستطع إيقاف ما يحدث. أدركت أن حياة مريرة تنتظرني فتركتها تحدث إلى حين. ولكن أجازي نفسي، حتّى يجيء ذلك الحين، خلقت عجائب طفولتي. وإذا كنت اليوم أعتزّ بأن أكون شاهداً على طفولتي وطفولة أمثالي فلأنني أحاول، في معظم كتاباتي، أن أستجلي المُلبَّد فيها؛ إذ كلّ حياة إنسان لها غيومها، بعضها ينقشع وبعضها يبقى في السديم. كذلك هي كلّ طفولة. إنّ قرية طفولتي لم يعد لها وجود حتى في ذاكرتي: شاشة مُشَوَّشَة، تتشبّح عليها صورتي وصور الآخرين والأشكال التي لا شكل لها. تلك الطفولة دمَّرتها الهجرة. لا أومن بمن يدّعي أنه يعرف كل طفولته. قد يكون له إحساس غامض بها، لكن هذا لا ينجلي إلاّ بمثابة قبس من النور في فضاء دامس. لا يمكن معرفة كل شيء عمّا يمكن أن تؤثر به طفولة الكاتب على كتاباته! فهو يكتب طفولته من خلال رجولته ونضجه. إنه يحوّم حولها؛ لأن كل طفولة هي رهينة برجولتها. والطفل «الطفل» لا يفهمه إلاّ الطفل.

عندما تتناطح غيوم حياتي يستيقظ انتظاري الغافي. أومن بحياة الطوارئ في حياتي. غيوم حياتي تحفزني للقبض على ما

ينفلت منها. إنها مثل الصَّوّانة (قطعة من حجر الصَّوّان) فإذا هي انقدحت كانت الشرارة ثم الشعلة ثم النور.

أحبّ الغامض، المتلاطم، السَّراب، الصَّدى، البرعم، العنقاء، سحر التموج، الإغراء، «أنا هو الذي أنا هو» والحنين إلى انبثاق جذر التكوين.

في كل شدّة تغزوني أوقظ لها شحنة من خلايا تجاربي المخزونة. لقد صنعت لحصني سردابه السّريّ، ولهرمي منفذه المستَغْلَق ولبرجي منظاره الكشّاف.

أنا من موالد الحمل، بين الليل والنهار. من حقّ الذئب أن يفترسني ومن حقّي أن أراوغه وأناطحه.

سيبقى مني رمزي وليس حياتي.

إننا نظلم دائماً «كانَ» ونقسو عليها في حاضرنا. إنها مثل الجدة التي ننعتها بالخَرَف وننسى تَبَرْعُم خيالنا الذي شكّلته مُناغَيات حكاياتها. إن «كانَ» هي الجدة اللغوية وليس «الآن» إلاّ حفيدها.

برود مشاعري ليس هو مثل بذرة ولدت معي فَنَمَت حتى صارت لها جذور عميقة متشعبة. إنّ ما اكتسبته عبر تجاري وصدماتي وشَتْلات مغروسة هنا وهناك، في حقل حياتي، استجذرته من منبته. برود مشاعري لا يكون إلاّ كآبة مرحلية.

كنت جالساً وحيداً في مطعم الدورادو حين مرّ العربي اليعقوبي ليذكرني بعيد ميلاده القادم. شربنا الشامپانيا احتفالاً بعيد ميلادي في انتظار عيد ميلاده. هكذا زال المعنى المقلق لعيد ميلادي الرابع والستين. إنها لحظة صداقة.

فصل الربيع:

الكتب والكتابة هما المنبعان اللذان لا ينضبان منذ انبثاقهما في حياتي. إنهما يقهران الزمن العادي لخلق زمن تعميق الإبداع. إنهما يوجّهان أحلامي وهواجسي المنبجسة. يخلّصانني من الرؤية ويقودانني نحو الرؤيا، نحو الغربة الجوّانية.

إنّ النظرة لا تحيط بكل الفضاء إلاّ في الحلم. فأَنْ نحقق أحلامنا قبل أن نحقق أحلام الآخرين هو المَرْمَى الفَضْل.

ينبوع الحلم لا ينضب إذا كان مثل جنون دون كيخوتي: من حلم إلى حلم وغزوة إلى غزوة حتى يريحه الوهن إلى حين. لا يهمّ النصر لمن هو مسكون بالأبدية. ماذا عساه أن يفعل دون كيخوتي بحياته إذا هو فقد جنونه؟ قد نبدأ بالحلم وننتهي بالجنون: فقد عاش دون كيخوتي مجنوناً ومات عاقلاً كما هو مكتوب على قبره. مرحباً...! من يستطيع أن يكون مثله؟

المغامرة هي الينبوع الذي أختلس منه الفرح الشارد.

اقتطفت أول ثماري عندما كَرَّست نفسي للقراءة والكتابة وتخلصت من لعنة العمل الرسمي ورؤسائه المتبجحين ومرؤوسيهم اللاعقين في خنوع أطراف الأصابع من أجل ترقية درجة في عملهم. ولكني أنتشي مستسيغاً رحيقي فضلت أن أكون دائماً وحيداً رابحاً أو خاسراً في عملي. تركت الواقع الإبداعي ينخلق من الوجود والعدم، من المِلاء والفراغ، من الباطل والمُبْطِل نحو الأسمى.

المبدع هو الذي يغرس فيَّ شتلة الانبثاق والسموّ. هو الذي يُنْبِتُ الكلمات ليشكّل منها صور الرؤى والأَخْيِلة. لا أومن بالأمل معزولاً عن طموحي وجهدي. إنّ الأمل وحده يولّد التماطل والتلهّي. الوحيد الذي من حقه أن يُؤَمِّل هو

الطفل. إنّ الطفل ليس قادراً على تغيير شيء وإنْ حَدَث فهو معجزة وفَلْتَة.

تعزف قيثارة الطبيعة على قلبي حينما أكون في قلبها وحين أحاكيها فهي التي تكون في قلبي. الطبيعة التي تنقلها لنا المخيّلة المُبْدِعة هي أجمل من الطبيعة نفسها. أنتشي بأنسامها وأصواتها أعمق حينما أكون بعيداً عنها. الطبيعة هي التي تشكل سجايانا. منها نستمدّ ما يوآزرنا في أسانا، إنها مَلْجَؤنا حينما نفقد الانسجام مع الطبيعة البشرية.

أجمل زهرة في حياتي هي وحشية. تختفي رائحتها عند الاقتراب منها وتذبل إذا ما هي شُتِلَت. لا تنمو ولا تفوح إلاّ في طينها البركاني. اسمها منحوت من منبتها. إنها تتلاشى عَوْداً إلى منتهى أبديتها الرمادية. وفي كل انبعاث ينخلق معها لونها الحربائي، السَّرابي، الألواني ورحيقها السّام الذي تحصّن به عذريتها حتى لا يمسها القَطْف الذي لا يذهب بلِقَاحِها بعيداً. سمّها إلاهة الزهور إنْ شئت! فهي عذراء الاسم.

أُهدي باقة حياتي لمن يجعل منها مشعلاً للتبصر في نفق الفكر. لا تهمني هُوّيات الأشخاص إلاّ بقدر ما في عمقها من دالّ على فاعليتها. أعرف أنّ باقة حياتي جدُّ شائكة فلا أهديها إلاّ لِيَدٍ كَنِيَة (من الكَنَب). وقد أتركها لمن يريدها.

إنّ كلمة نجاح تذكرني دائماً ببسمة تمثيلية فُقاعية أو صَفقة تجارية ماكرة. لا أحبّ أن أحشر نفسي في مزايدة كلمة نجاح هذه لأنها تغتصب طموحي.

فصل الصيف:

كان ما كان من حرارة انتظار المجهول. جاء ما جاء ولم

يجئ ما كان رغبة في أن يجيء. لم أخسر إلاّ قدر ما ربحت. لم أقامر بكل ما أملك. هناك جنّات سمعت عنها. كان لي شوق إلى رؤيتها لكني عدَلت. لا أتلهّف اليوم على «جَنّةٍ بِرَبْوَةٍ أصابها وابل فأَتت أُكُلَها ضِعفَين». إنّ اللهفة تفقدني متعة ما أعيشه.

الصراحة الزائدة حمق يقود إلى التهور. قد يلهبني الجنون الذي يفجّر الأفراح ويوقظ فتنة الجمال.

لا تهيّجني الصورة إلاّ بما تثيره من خَلْق الصّور التي تتلاشى فيها.

الصراحة المطلقة إعدام لكل احتمال للتوافق.

عندما أعترف بصريح ما أعرفه عن الأشخاص وصريحة ما أعرفه عن الأشياء أكون قد خلقت عدوّاً لا أعرف متى يثأر منّي ولو في الوهم.

الصراحة ليست دائماً أمّ الحقيقة. ما يشدّني إلى واقع ما هي الفكرة المبهجة التي أكوّنها عنه والغواية التي يستطيع أن يواجهني بها.

لا أستنسم زحمة الحياة إلاّ قدر ما ألّم من زخم أشتاتها. لا أنتظر أحداً ليفرحني إنما أنا الذي أُفرِح نفسي بالفرح الذي يخلقه مزاجي.

في موقع الجمال الوحشي، لا أتماسّ وأراود إلاّ الخفيّ منه. البَهرج مباح للعنّينين. لا لَبَنَ في الصيف لكل «دَخْتَنوس»[1].

---

(١) إشارة إلى المثل: في الصيف ضَيّعْتِ اللبن.

النسمات الباردة التي تنعشني هي تلك التي تباغتني مثل مَطْرَة الصيف.

إنّ قليلاً من الكراهية ينشط الدورة الدموية، ويمطّط الشّرايين ويعيد للقلب حيويته، أمّا كثير من الكراهية فهو يفجّر كل شيء. وكذلك هو قليل من البارانويا الذي قد يساعد على الإبداع وكثير منها يقود إلى الهذيان والانفصام العقلي.

إذا كان لي موعد لا بدّ منه مع شخص أكرهه فأنا أشتمه في حمام منزلي بصوت عال. وحين أقابله لا يكون هناك من داع إلى شتمه مرتين، علانية أو سرّاً.

أكره من يمنعني من الكتابة ولا أعرف كيف أتصالح معه إلاّ بالكتابة التي تنتصر على المنع.

أشعر بعذوبة الحياة حينما أستيقظ وأوزّع النظرات الصباحية من شرفتي مثل نسر يقلع من علوّ إلى علوّ، حينما أستشفّ الأبعاد الممكنة على مرآيَ أو المستعادة في المخيلة المرحة أو تلك التي ربما حلمت بها، حينما أستعذب أوّل شَرْبَة من عتيقٍ إنْ حَضَرت، حينما أستمع إلى موسيقى تذكرني بمن كنت أهواها فإذا بها تطرق بابي، حينما تنتصر رغبة الوحدة الحالمة على نزوة النمل البشري.

حينما يتمّ لي هذا كلّه أو أقلّه بقليل أشعر بعذوبة الحياة وبالقطط المتخالبة في رأسي تهدأ وتستكين.

مشروبي المثلج هو ما تسقينه يد الأمّ أو الصديقة أو تلك التي أعرفها أوّل مرة. أحذر ممّا تسقينه العشيقات حتى ولو كان من فمهنّ بل أحذر حتّى من الأخوات.

مشروبي المثلج ليس حتماً أن أشربه في عزّ الحرّ. مشروبي

أستذوقه رشفات. لا أعبّه؛ فقد يكون من عنب الثعلب أو الدبّ أو الحيّة أو الحنظل[٢].

فصل الخريف:

يفقد الشخص أوراقه عندما يدركه اليباس. قد يجدد أوراقه إذا كانت جذوره عميقة ومعينه غير ناضب. الأوراق لا تتساوى في سقوطها وتغير لونها وتلاشيها؛ فكل ورقة لها مناعتها ودورها في السقوط أو هي تُفْصَل قبل نضجها. ومعلوم أنّ كلّ ما ينمو ويَورِقُ مصيره التلاشي.

لا أعترف بخريف العمر إلاّ عند العجز التام عمّا كنت أنجزه بسهولة. الخريف قد يدركنا قبل الخريف. لا أحد يضمن ثمار جنّته.

الإنسان، في خريف العمر، إمّا هو حكيم أو خَرِف، قاطِف أو مقطوف.

أستحلي طعم ما كان مرّاً وأستمرُّ طعم ما كان حلواً.

لم تعد تغويني كل الولائم إلاّ ما شفَّ منها وأَيْسر. لا أتحسر على ما كان لي وأفلته رغبة أو قهراً. أذكر ولا أذكر كلّ شيء. لا أتعلق بغصن هشّ حتى وإنْ كان يقطر عسلاً. أواجه اصفرار الحياة بمزج الأصفر والأزرق والأبيض فأحصل على لوني. لم تغزني حياة التنسك قط. أتماسُّ مع الحياة ولا أواجه أمواجها الطوفانية. غالباً ما أصل إلى ضفتي المقصودة عندما أبحر في الوقت الملائم.

لا بطل منتصراً ولا بطل منهزماً. في كل بطولة معبودية.

---

(٢) إشارة إلى نباتات وحشية.

أنا معبود نفسي. الطموح عندي دائماً صنو الإنجاز في كل شطط سفاهة.

مثل أوراق الشجرة التي لا تتساوى في تساقطها كذلك هي الأحلام؛ فمنها القويُّ ومنها الهشيش، الشّفاف والضبابي والمفرح والمرعب. إننا لا نختار أحلامنا، ولكن لها صلة بوعينا ولا وعينا. كثير من أحلامنا تكشف لنا عن سرّ ما عشناه وما سنعيشه. أحلامنا هي قدرنا، ما شئنا من سحرها وما لم نشأ. وكثيراً ما أنارت لنا جزءاً من حياتنا المظلم وألهمتنا مبتغانا. حين تغيب عنّي الأحلام ألجأ إلى أحلام يقظتي، لكنها ليست هي الأقوى من أحلام الغيب التي تملك مفاتيح حياتنا السّرية. وجهي هو أحلامي السحرية.

لا أبالي بما يسقط من أوراق شجرة خريفي. لقد أعطت لونها وثمرها وطعمها ورحيقها. كل شيء تمّ كما شئت وكما لم أشأ. لا أذكر من أشجاني إلاّ ما ينْتَرِقُ من خشونتها وما يهيّجني إلى ذكرى مستطابها. المرء ليس دائماً هو كيف انتهى وليس كيف بدأ؛ فقد ينتهي بما بدأ أو لم يبدأ بما انتهى. إننا ما نصير إليه.

من حسن حظي أني لم أحب أية امرأة لعينة حتى تقهرني: لا قاهر ولا مقهور. لقد أحببتهنّ من بعيد. لا يهمني أن يبادلنني حبي لهن. عندما تبدأ امرأة تبادلني الحب عن قرب وجدية العشرة معها فإنها الكارثة هي التي تبدأ. أن أحبهن بعيداً عني، بعيداً عني، وأن يحببنني بعيداً عنهن، بعيداً عنهن: أن يكون بيننا الحنين الذي قد يخلق لنا ذلك الحب إن هو وُجِد. لا أحب امرأة أقدسها في المساء لكي ألعنها في الصباح كما يفعل أكثر الملاعين. إن كل شرح لهذه الأسطورة يظل أقل من قيمتها، وهي أيضاً حليفتنا في تناقضنا وأكثر صموداً منا في إيهامنا بوجودها. أمّا أنا فما برحت أكابد من أجل أن أحب نفسي وأقهر هواجسي الحمقاء الخبيثة.

الليل ليس دائماً مقدساً: إنه التأمل الذي أرّق نيتشه وجعله يحز أصابعه بموسى أو يحرقها على لهيب شمعة ليتحدى قلقه وألمه، إنه الهذيان الذي أنهك لوتريامون بعد أن يكون قد شرب عشرين فنجاناً من القهوة الكثيفة ولا أحد كان يستطيع إيقافه راكضاً في شوارع باريس، إنه الجنون الإنساني الذي عجّل موت فان غوغ... الليل هو الطهر أو الدنس، الحلم أو الكابوس، المسالمة أو الجريمة. الليل لا يشفق على أحد. عليك أن تشفق على نفسك فيه وتعرف ما تريد أن تكون فيه.

ISBN 1 85516 537 6

DAR AL SAQI
دار الساقي